

سورة يس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هي مكية بإجماع، وهي ثلاث وثمانون آية؛ إلا أن فرقة قالت: إن قوله تعالى: ﴿وَنَكُتِبُ مَا قَدُمُوا وَأَنَارُهُمْ﴾ [يس: ١٢] نزلت في بني سلمة من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم، وينتقلوا إلى جوار مسجد الرسول ﷺ، على ما يأتي^(١)، وفي كتاب أبي داود عن معقل بن يسار قال: قال النبي ﷺ: «اقرأوا يس على موتاكم»^(٢)، وذكر الأجري من حديث أم الدرداء عن النبي ﷺ قال: «ما من ميت يقرأ عليه سورة يس إلا هون الله عليه»^(٣)، وفي مسند الدارمي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة يس في ليلة ابتغاء وجه الله غفر له في تلك الليلة»^(٤) خرج أبو نعيم الحافظ أيضاً، وروى الترمذي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات» قال: هذا حديث غريب، وفي إسناده هارون أبو محمد شيخ مجهول؛ وفي الباب عن أبي بكر الصديق، ولا يصح حديث أبي بكر من قبل إسناده، وإسناده ضعيف،^(٥) وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «إن في القرآن لسورة تشفع لقارئها ويغفر

(١) كان الشوكاني - رحمه الله - جرياً على كلام السيوطي - رحمه الله - قد قال: بصحة بعض ما ورد في فضل سورة «يس» من أحاديث، فتعقبهما الشيخ عبد الرحمن المعلمي - رحمه الله - في هامش الفوائد المجموعة (ص ٣٠٣) فقال عند هذا الحديث: «مداره على الحسن، عن أبي هريرة، ولم يسمع من أبي هريرة فالخبر منقطع - مع أن في سنده إلى الحسن مقالاً جاء عنه بسند فيه: أبو بدر شجاع بن الوليد، وهو صدوق له أوهام ولم يخرج له البخاري إلا حديثاً واحداً قد توبع فيه شيخه.

وكذلك أخرج له مسلم في المتابعات.

ونحوها بسند آخر فيه المبارك بن فضالة، عن أبي العوام، والمبارك يخطئ ويدلس ويُسوي.

وأبو العوام كثير المخالفة والروم.

وبسند فيه محمد بن زكريا الغلابي وهو يضع، وآخر فيه أغلب بن تيم تالف.

وثالث فيه جسر بن فرقد تالف.

وأوثق هذه الأسانيد: أبو بدر (صاحب الإسناد الأول) وقد علمت ما فيه، والله أعلم». أ. هـ.

سيأتي في تخريجه من رواية أحمد ومسلم - إن شاء الله.

(٢) ضعيف: أبو داود (٣١٢١) في الجنائز، والنسائي في الكبرى، وابن ماجه (١٤٤٨) في الجنائز، وضعفه الألباني.

(٣) ضعيف جداً: رواه ابن مردويه كما في الدر المنثور (٥/ ٤٨٢) للسيوطي، والدليمي (٤/ ٣٢) في مسند الفردوس.

(٤) ضعيف: وضعفه الألباني (٥٧٨٨)، وفيه المبارك بن فضالة، عن الحسن، عن أبي هريرة، وانظر أول هامش في هذه السورة.

(٥) غريب: الترمذي (٢٨٨٧) في فضائل القرآن، وضعفه الألباني (١٩٣٥) في ضعيف الجامع.

لستمعها ألا وهي سورة يس تدعى في التوراة المعمة^(١) قيل: يا رسول الله وما المعمة؟ قال: «تعم صاحبها بخير الدنيا وتدفع عنه أهواويل الآخرة وتدعى الدافعة والقاضية» قيل: يا رسول الله وكيف ذلك؟ قال: «تدفع عن صاحبها كل سوء وتقضي له كل حاجة ومن قرأها عدلت له عشرين حجة ومن سمعها كانت له كألف دينار تصدق بها في سبيل الله ومن كتبها وشربها أدخلت جوفه ألف دواء وألف نور وألف يقين وألف رحمة وألف رافة وألف هدى ونزع عنه كل داء وغل»، ذكره الثعلبي من حديث عائشة، والترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه مسنداً^(١)، وفي مسند الدارمي عن شهر بن حوشب قال: قال ابن عباس: من قرأ «يس» حين يصبح أعطي يسر يومه حتى يمسي ومن قرأها في صدر ليلته أعطي يسر ليلته حتى يصبح^(٢)، وذكر النحاس عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: لكل شيء قلب وقلب القرآن يس من قرأها نهاراً كفي همه ومن قرأها ليلاً غفر ذنبه^(٣)، وقال شهر بن حوشب: يقرأ أهل الجنة «طه» و«يس» فقط^(٤).

رفع هذه الأخبار الثلاثة الماوردي فقال: روى الضحاك عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء قلباً وإن قلب القرآن يس ومن قرأها في ليلة أعطي يسر تلك الليلة ومن قرأها في يوم أعطي يسر ذلك اليوم وإن أهل الجنة يرفع عنهم القرآن فلا يقرؤون شيئاً إلا طه ويس»^(٥)، وقال يحيى ابن أبي كثير: بلغني أن من قرأ سورة «يس» ليلاً لم يزل في فرح حتى يصبح، ومن قرأها حين يصبح لم يزل في فرح حتى يمسي؛ وقد حدثني من جربها؛ ذكره الثعلبي وابن عطية^(٦)، قال ابن عطية: ويصدق ذلك التجربة^(٧)، وذكر الترمذي الحكيم في نوادر الأصول عن عبد الأعلى قال: حدثنا محمد ابن الصلت عن عمر بن ثابت عن محمد بن مروان عن أبي جعفر قال: من وجد في قلبه قساوة فليكتب «يس» في جام بزعفران ثم يشربه^(٨)؛ حدثني أبي رحمه الله قال: حدثنا أصرم بن حوشب، عن بقية بن الوليد، عن المعتمر بن أشرف، عن محمد بن علي قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) منكر ولا يصح: تفرد به محمد بن عبد الرحمن، عن سليمان وهو منكر، والبيهقي (٢/ ٤٨١) في الشعب، ورواه الترمذي الحكيم (٣/ ٢٥٨) في نوادر الأصول، والخطيب البغدادي (٢/ ٣٨٧) في تاريخ بغداد. قلت: وسليمان هو ابن دفاع وهو منكر. وانظر الضعيفة (٣٢٦٠) للألباني - رحمه الله.

(٢) ضعيف: وفيه شهر بن حوشب هو ضعيف، وانظر سنن الدارمي (٣٤١٩) في فضائل القرآن.

(٣) ضعيف: وابن أبي ليلى سيئ الحفظ، هذه واحدة، والثانية: أن مثل هذا لا يقال إلا عن توقيف، ولعله باطل، فلا يصح، وانظر إعراب القرآن (٣/ ٣٨١) للنحاس.

(٤) انظر السابق.

(٥) ضعيف جداً: الضحاك عن ابن عباس منقطع وفي سنده ضعفاء، انظر: النكت والعيون (٣/ ٤٥٦).

قلت: وكما تراه فقد جمع الموضوعات في حديث واحد.

(٦) ضعيف جداً: يحيى تابعي، ثم هو رواه بلاغاً، فالإسناد ساقط وانظر التالي.

(٧) انظر: المحرر الوجيز (١٣/ ١٨٥) لابن عطية، ومثل هذا باطل.

(٨) ضعيف: قال البيهقي (٢/ ٤٨٢) بعد أن عزاه للترمذي الحكيم (٢/ ٤٨٢) في نوادر الأصول: وكان إبراهيم

يكراه ذلك، ولو صح الحديث لم يكن للكراهة معنى، إلا أن في صحته نظراً.

قلت: ورواه الحاكم (٣/ ٢٥٨) في المستدرک من طريق آخر وصححه، وتعقبه الذهبي، فقال: «فيه الأصبغ

ابن نباتة وإه جداً، وحبان بن علي ضعفوه».

«القرآن أفضل من كل شيء دون الله وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه، فمن وقر القرآن فقد وقر الله ومن لم يوقر القرآن لم يوقر الله، وحرمة القرآن عند الله كحرمة الوالد على ولده، القرآن شافع مشفع وما حل مصدق^(١) فمن شفع له القرآن شفع ومن محل به القرآن صدق، ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وحملة القرآن هم المحفوفون بحرمة الله الملبسون نور الله المعلمون كلام الله من والاهم فقد والى الله، ومن عاداهم فقد عادى الله، يقول الله تعالى: يا حملة القرآن استجيبيوا لربكم بتوقير كتابه يزدكم حبا ويحببكم إلى عباده، يدفع عن مستمع القرآن بلوى الدنيا ويدفع عن تالي القرآن بلوى الآخرة ومن استمع آية من كتاب الله كان له أفضل مما تحت العرش إلى التخوم وإن في كتاب الله لسورة تدعى العزيزة ويدعى صاحبها الشريف يوم القيامة تشفع لصاحبها في أكثر من ربعة ومضر وهي سورة يس^(٢)، وذكر الثعلبي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ سورة يس ليلة الجمعة أصبح مغفورا له»^(٣)، وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «من دخل المقابر فقرأ سورة يس خفف الله عنهم يومئذ وكان له بعدد حروفها حسنات»^(٤).

﴿ يَسَ ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿يَسَ﴾ في ﴿يَسَ﴾ أوجه من القراءات: قرأ أهل المدينة والكسائي ﴿يَسَ﴾ (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ بإدغام النون في الواو، وقرأ أبو عمرو والأعمش وحمزة «يَسِين» بإظهار النون، وقرأ عيسى بن عمر: «يَسِين» بنصب النون، وقرأ ابن عباس وابن أبي إسحاق ونصر بن عاصم: «يَسِين» بالكسر، وقرأ هارون الأعور ومحمد بن السميقي «يَسِين» بضم النون؛ فهذه خمس قراءات، القراءة الأولى بالإدغام على ما يجب في العربية؛ لأن النون تدغم في الواو، ومن بين قال: سبيل حروف الهجاء أن يوقف عليها، وإنما يكون الإدغام في الإدراج، وذكر سيبويه^(٥) النصب وجعله من جهتين: إحداهما: أن يكون مفعولا ولا يصرفه؛ لأنه عنده اسم أعجمي بمنزلة هاييل، والتقدير اذكر يسين، وجعله سيبويه اسما للسورة، وقوله الآخر: أن يكون مبنيا على الفتح مثل كيف وأين، وأما الكسر فزعم الفراء أنه مشبه بقول العرب: جبر لا أفعل^(٦)، فعلى هذا يكون «يسن» قسما، وقاله ابن

(١) ماحل مصدق: في النهاية (٤/ ٣٠٣): «خصم مجادل صادق».

(٢) حديث موضوع: فيه أصرم بن حوشب، قال البخاري - رحمه الله (١/ ٢٨) في التاريخ الكبير: «متروك الحديث، وفيه بقية بن الوليد وهو مدلس يسوى وقد عنعنه»، فالأثر ظلمات بعضها فوق بعض.

(٣) ضعيف جداً: وقد سبق بنحوه، وقد ضعفه الألباني (٥٧٨٨) عن أبي هريرة (٥٧٨٧) عن ابن مسعود - رضي الله عنه وعزاه لأبي نعيم في الحلية وضعفه الألباني (٥١١١) في الضعيفة.

(٤) ضعيف جداً إن لم يكن موضوعاً: عزاه السيوطي (٥/ ٤٨٣) في الدر المنثور لابن النجار في تاريخه، عن أبي بكر، وذكره صاحب تحفة الأحوذني (٣/ ٢٧٥)، عن أنس وعزاه لصاحب الخلال وضعفه، وقال الألباني (٢٢٤٦) في الضعيف: «موضوع».

(٥) انظر: الكتاب (٢/ ٣٠) لسيبويه.

(٦) معنى «جبر لا أفعل» أي حقاً لا أفعل، ويستخدم كأنه يمين (من هامش المطبوعة).

عباس^(١)، وقيل: مشبه بأمس وحذام وهؤلاء ورقاش، وأما الضم فمشبه بمنذ وحيث وقط، وبالننادى المفرد إذا قلت: يا رجل، لمن يقف عليه، قال ابن السميعة وهارون: وقد جاء في تفسيرها رجل فالأولى بها الضم، قال ابن الأنباري: «يس» وقف حسن لمن قال هو افتتاح للسورة، ومن قال: معنى «يس» يا رجل لم يقف عليه، وروي عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما أن معناه: يا إنسان^(٢)، وقالوا في قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠] أي: على آل محمد، وقال سعيد بن جبير: هو اسم من أسماء محمد ﷺ^(٣)؛ ودليله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، قال السيد الحميري:

يا نفسي لا تمحضي بالنضح جاهدةً على المودة إلا آل ياسين

وقال أبو بكر الوراق: معناه يا سيد البشر^(٤)، وقيل: إنه اسم من أسماء الله؛ قاله مالك، روى عنه أشهب قال: سألته: هل ينبغي لأحد أن يسمى^(٥) بياسين؟ قال: ما أراه ينبغي لقول الله: ﴿يَسَّ (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ يقول هذا اسمي يس، قال ابن العربي^(٦): هذا كلام بديع، وذلك أن العبد يجوز له أن يتسمى باسم الرب إذا كان فيه معنى منه؛ كقوله: عالم وقادر ومريد ومتكلم، وإنما منع مالك من التسمية بـ «يس»، لأنه اسم من أسماء الله لا يدرى معناه؛ فربما كان معناه ينفرد به الرب فلا يجوز أن يقدم عليه العبد، فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠] قلنا: ذلك مكتوب بهجاء فتجوز التسمية به، وهذا الذي ليس بمتهجى هو الذي تكلم مالك عليه؛ لما فيه من الإشكال؛ والله أعلم، وقال بعض العلماء: افتتح الله هذه السورة بالياء والسين وفيهما مجمع الخير، ودل المفتتح على أنه قلب، والقلب أمير على الجسد؛ وكذلك «يس» أمير على سائر السور، مشتمل على جميع القرآن، ثم اختلفوا فيه أيضا؛ فقال سعيد بن جبير وعكرمة: هو بلغة الحبشة^(٧)، وقال الشعبي: هو بلغة طي^(٨)، الحسن: بلغة كلب^(٩). الكلبي: هو بالسريانية فتكلمت به العرب فصار من لغتهم^(١٠)، وقد مضى هذا المعنى في «طه» وفي مقدمة الكتاب مستوفى، وقد سرد القاضي عياض أقوال المفسرين في معنى «يس» فحكى أبو محمد مكي أنه روي عن النبي ﷺ قال: «لي عند ربي عشرة أسماء» ذكر أن منها طه ويس اسمان له^(١١).

(١) ضعيف: سبق أنها حروف لا تصح بهذا الشكل، وقد رواه ابن مردويه، عن كعب الأحبار كما في الدر (٦/٤٨٥) لا عن ابن عباس، ورواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - كما في تفسير الطبري (٢٢/١٥٤)، مما يشعر أن ابن عباس لم يقل به، وإنما برئت ساحته منه، والله أعلم.

(٢) حسن من طريق عكرمة: الطبري (٢٢/٥٤) في تفسيره، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وذكره ابن أبي حاتم (١٢/٥٦) في تفسيره. وعزه للسيوطي (٥/٤٨٤) في الدر، ولعبد بن حميد، وابن أبي شيبة.

(٣) انظر تفسير البغوي (٧/٧).

(٤) معنى منكر: ابن أبي حاتم (١٢/٥٦) في تفسيره ولا يصح معنى فلم يثبت بالدليل - السنة المطهرة - وإنما هو مجرد رأى لا توقيف له.

(٥) أحكام القرآن (٤/١٦٠٨) للقاضي ابن العربي المالكي.

(٦) ضعيف إلى عكرمة: فيه شرقي البصري، عن عكرمة، وهو مجهول كما في الميزان (٣/٣٧٠).

(٧ - ١٠) ذكرها المارودي (٣/٤٣٥) في النكت والعيون ولا يصح ذلك كله لعدم قيام الدليل عليه.

(١١) معضل: ومثل هذا بعيد تمام البعد، عن النبي ﷺ، والحديث نقله القاضي عياض في الشفا (١/٥٤) وقد رواه =

قلت : وذكر الماوردي عن علي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تعالى أسماني في القرآن سبعة أسماء : محمد ، وأحمد ، وطه ، ويس ، والمزمل ، والمدثر ، وعبد الله »
قاله القاضي^(١) ، وحكى أبو عبد الرحمن السلمي عن جعفر الصادق أنه أراد يا سيد ، مخاطبة لنبه ﷺ^(٢) وعن ابن عباس : «يس» يا إنسان أراد محمدا ﷺ^(٣) ، وقال : هو قسم وهو من أسماء الله سبحانه^(٤) ، وقال الزجاج : قيل معناه يا محمد وقيل يا رجل وقيل يا إنسان ، وعن ابن الحنفية «يس» يا محمد^(٥) ، وعن كعب : «يس» قسم أقسم الله به قبل أن يخلق السماء والأرض بألفي عام قال يا محمد : ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ثم قال : ﴿وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾ ، فإن قدر أنه من أسمائه ﷺ^(٦) ، وصح فيه أنه قسم كان فيه من التعظيم ما تقدم ، مؤكداً فيه القسم عطف القسم الآخر عليه ، وإن كان بمعنى النداء فملم جاء قسم آخر بعده لتحقيق رسالته والشهادة بهديته ، أقسم الله تعالى باسمه وكتابه أنه لمن المرسلين بوحه إلى عباده ، وعلى صراط مستقيم من إيمانه ؛ أي : طريق لا اعوجاج فيه ولا عدول عن الحق ، قال النقاش : لم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا له ، وفيه من تعظيمه وتمجيده على تأويل من قال : إنه يا سيد ما فيه ، وقد قال عليه السلام : «أنا سيد ولد آدم»^(٧) انتهى كلامه ، وحكى القشيري^(٨) قال ابن عباس : قالت كفار قريش : لست مرسلًا وما أرسلك الله إلينا ؛ فأقسم الله بالقرآن المحكم أن محمداً من المرسلين ، ﴿الْحَكِيمَ﴾ المحكم حتى لا يتعرض لبطلان وتناقض ؛ كما قال : ﴿أُحْكِمْتَ آيَاتَهُ﴾ [هود : ١] ، وكذلك أحكم في نظمه ومعانيه فلا يلحقه خلل ، وقد

= أبو نعيم (١ / ٦٩) في الدلائل بسند ضعيف جداً من طريق إسماعيل بن إبراهيم التيمي وهو ضاع ، عن سيف ابن وهب وهو ضعيف .

قلت : فلا يصح .

(١) السابق نفسه ، وانظر : الماوردي (٤ / ٥) في تفسيره ، وقال ابن العربي (٤ / ١٦٠٨) في أحكام القرآن : « لا يصح » .

(٢) الشفا (١ / ٥٤) . وانظر : للماوردي (٤ / ٥) .

(٣) (٤ / ٤) ضعيف : للانقطاع بين علي بن أبي طلحة ، وابن عباس - رضي الله عنهما - وذكره الطبري (٢٢ / ١٥٤) في تفسيره .

(٥) ضعيف : البيهقي (١ / ١٥٨) في الدلائل من طريق إسماعيل - وهو ضعيف - عن ابن عمر ، عن محمد بن الحنفية به .

(٦) خبر إسرائيلي ضعيف : عزاه السيوطي (٥ / ٤٨٥) في الدر لابن مردويه ، وانظر الشفا (١ / ٢٥) للقاضي عياض - رحمه الله .

(٧) صحيح : مسلم (٢٢٧٨) في الفضائل بدون قوله : « ولا فخر » .

(٨) ضعيف جداً : القشيري في هذا بينه وبين الخبر أمم من الناس ، فكيف يعلق عنه حديثاً؟! وانظر : تفسير القشيري (٦ / ٣٥٥) .

قلت : قال العلامة ابن قيم الجوزية - رحمه الله - في تحفة الودود : وأما ما يذكر العوام أن «يس» ، «وطه» من أسماء النبي ﷺ فغير صحيح ، وليس في ذلك حديث صحيح ، ولا حسن ، ولا مرسل ، ولا أثر من صحابي ، وإنما هذه الحروف مثل «السم» و «الر» ونحوها .

يكون ﴿الْحَكِيم﴾ في حق الله بمعنى المحكم بكسر الكاف كالإيم بمعنى المؤلم، ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: دين مستقيم وهو الإسلام، وقال الزجاج: على طريق الأنبياء الذين تقدموك؛ وقال: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ خبر إن، و﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ خبر ثان، أي: إنك لمن المرسلين، وإنك على صراط مستقيم، وقيل: المعنى لمن المرسلين على استقامة؛ فيكون قوله: ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ من صلة المرسلين؛ أي: إنك لمن المرسلين الذين أرسلوا على طريقة مستقيمة؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى] أي: الصراط الذي أمر الله به.

قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ قرأ ابن عامر وحفص والأعمش ويحيى وحمزة والكسائي وخلف ﴿تَنْزِيلَ﴾ بنصب اللام على المصدر؛ أي: نزل الله ذلك تنزيلا، وأضاف المصدر فصار معرفة كقوله: ﴿فَضْرَبَ الرَّقَابَ﴾ [محمد: ٤] أي: فضربا للرقاب، الباقون: «تنزيل» بالرفع^(١) على خبر ابتداء محذوف أي: هو تنزيل، أو الذي أنزل إليك تنزيل العزيز الرحيم، هذا وقرئ «تنزيل» بالجر على البدل من ﴿وَالْقُرْآنِ﴾ والتنزيل يرجع إلى القرآن، وقيل: إلى النبي ﷺ؛ أي: إنك لمن المرسلين، وإنك ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾، فالتنزيل على هذا بمعنى الإرسال؛ قال السهلي تعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ [رَسُولًا يَتْلُوهُ] [الطلاق] ويقال: أرسل الله المطر وأنزله بمعنى، ومحمد ﷺ رحمة الله أنزلها من السماء، ومن نصب قال: إنك لمن المرسلين إرسالا من العزيز الرحيم، و﴿الْعَزِيزِ﴾ المتقم من خالفه ﴿الرَّحِيمِ﴾ بأهل طاعته.

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦٤﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ غَشَاةً وَبَيْنَ أَعْيُنِهِمْ مَقَاتِلَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿١٦٥﴾

قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ ﴿مَا﴾ لا موضع لها من الإعراب عند أكثر أهل التفسير، منهم قتادة؛ لأنها نفي والمعنى: لتنذر قوما ما أتى آباءهم قبلك نذير، وقيل: هي بمعنى الذي فالمعنى: لتنذرهم مثل ما أنذر آباؤهم^(٢)؛ قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة أيضا، وقيل: إن ﴿مَا﴾ والفعل مصدر؛ أي: لتنذر قوما إنذار آباؤهم، ثم يجوز أن تكون العرب قد بلغتهم بالتواتر أخبار الأنبياء؛ فالمعنى لم يندروا برسول من أنفسهم، ويجوز أن يكون بلغهم الخبر ولكن غفلوا وأعرضوا ونسوا، ويجوز أن يكون هذا خطابا لقوم لم يبلغهم خبر نبي، وقد قال الله: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كِتَابٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ [سبا: ٤٤]، وقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا آتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة: ٣] أي: لم يأتهم نبي، وعلى قول من قال بلغهم خبر الأنبياء، فالمعنى فهم معرضون الآن متغافلون عن ذلك، ويقال للمعرض عن الشيء إنه غافل عنه، وقيل: ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ عن عقاب الله.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾ أي: وجب العذاب على أكثرهم ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

(١) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص ١٦٤).

(٢) وجدته عن عكرمة من طريق سماك وهو مضطرب في روايته عنه، وإلى قتادة بسند صحيح عند الطبري (٢٤/١٥٦) في تفسيره.

بإذارك، وهذا فيمن سبق في علم الله أنه يموت على كفره، ثم بين سبب تركهم الإيمان فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾، قيل: نزلت في أبي جهل بن هشام وصاحبيه المخزوميين؛ وذلك أن أبا جهل حلف: لئن رأى محمدا يصلي ليرضخن رأسه بحجر؛ فلما رآه ذهب فرفع حجرا ليرميه، فلما أوما إليه رجعت يده إلى عنقه، والتصق الحجر بيده؛ قاله ابن عباس وعكرمة وغيرهما^(١)؛ فهو على هذا تمثيل، أي: هو بمنزلة من علت يده إلى عنقه، فلما عاد إلى أصحابه أخبرهم بما رأى، فقال الرجل الثاني وهو الوليد بن المغيرة: أنا أرضخ رأسه، فاتاه وهو يصلي على حالته ليرميه بالحجر فأعمى الله بصره فجعل يسمع صوته ولا يراه، فرجع إلى أصحابه فلم يره حتى نادوه فقال: والله ما رأيته ولقد سمعت صوته، فقال الثالث: والله لا شدخن أنا رأسه، ثم أخذ الحجر وانطلق فرجع الفهقري ينكص على عقبيه حتى خر على قفاه مغشيا عليه، فقيل له: ما شأنك؟ قال شأني عظيم رأيت الرجل فلما دنوت منه، وإذا فحل يخطر بذنبيه ما رأيت فحلا قط أعظم منه حال بيني وبينه، فواللات والعزى لو دنوت منه لأكلني، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾^(٢)، وقرأ ابن عباس: «إنا جعلنا في إيمانهم»، وقال الزجاج: وقرئ «إنا جعلنا في أيديهم»، قال النحاس: وهذه القراءة تفسير ولا يقرأ بما خالف المصحف، وفي الكلام حذف على قراءة الجماعة؛ التقدير: إنا جعلنا في أعناقهم وفي أيديهم أغلالا فهي إلى الأذقان، فهي كناية عن الأيدي لا عن الأعناق، والعرب تحذف مثل هذا، ونظيره ﴿سَرَابِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] وتقديره: وسرابيل تقيكم البرد فحذف؛ لأن ما وقى من الحر وقى من البرد؛ لأن الغل إذا كان في العنق فلا بد أن يكون في اليد، ولا سيما وقد قال الله عز وجل: ﴿فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ﴾ فقد علم أنه يراد به الأيدي، ﴿فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ أي رافعو رؤوسهم لا يستطيعون الإطراق؛ لأن من علت يده إلى ذقنه ارتفع رأسه، روى عبد الله بن يحيى: أن علي بن أبي طالب عليه السلام أراهم الإقماح، فجعل يديه تحت لحيته ولصقتهما ورفع رأسه قاله النحاس^(٣)، وهذا أجل ما روي فيه وهو مأخوذ مما حكاه الأصمعي، قال: يقال أقمحت الدابة إذا جذبت لجامها لترفع رأسها، قال النحاس: والقاف مبدلة من الكاف لقربها منها، كما يقال: قهرته وكهرته، قال الأصمعي: يقال أقمحت الدابة إذا جذبت عنانها حتى ينتصب رأسها، ومنه قول الشاعر:

... والرأسُ مُكْمَحٌ^(٤)

(١) (٢) ضعيف وله شاهد في الصحيح: رواه الطبري (٢٢/ ١٥٨) في تفسيره، عن عكرمة وفيه عبد الوارث بن سعيد وفيه مقال.

أما أثر ابن عباس فهو ضعيف.

ويخطر بذنبيه: يرفع ذيله مرة بعد أخرى ويفترش به فخذه للسان «خطر، ذنب».

قلت: وذكره ابن كثير مرسلأ، عن محمد بن كعب، من طريق ابن إسحاق كما في التفسير (٦/ ٣٦٦)

(٣) هذا عند النحاس (٣/ ٣٨٤) في إعراب القرآن.

(٤) هذا جزء من عجز بيت لذي الرمة، وقام البيت:

تمورٌ بضبعيها وترمي بجوزها
حذاراً من الإبعاد والرأس مُكْمَحُ

ويقال: أكمحتها وأكفحتها وكبحتها؛ هذه وحدها بلا ألف عن الأصمعي، وقمح البعير قموحا: إذا رفع رأسه عند الحوض وامتنع من الشرب، فهو بعير قامح وقمح؛ يقال: شرب فتقمح وانقمح بمعنى إذا رفع رأسه وترك الشرب ربا، وقد قامحت إبلك: إذا وردت ولم تشرب، ورفعت رأسها من داء يكون بها أو برد، وهي إبل مقامحة، وبعير مقامح، وناقة مقامح أيضا، والجمع قَمَاحٌ على غير قياس؛ قال بشر يصف سفينة:

ونحن على جوانبها قعودٌ نغض الطرف كالإبل القمَاح

والإقمَاح: رفع الرأس وغض البصر؛ يقال: أقمحه الغل إذا ترك رأسه مرفوعا من ضيقه، وشهرا قمَاح: أشد ما يكون من البرد، وهما الكانونان سميا بذلك؛ لأن الإبل إذا وردت أذاها برد الماء فقامحت رؤوسها؛ ومنه قمحت السويق، وقيل: هو مثل ضربه الله تعالى لهم في امتناعكم من الهدى كامتناع المغلول؛ قال يحيى بن سلام وأبو عبيدة، وكما يقال: فلان حمار؛ أي: لا يبصر الهدى، وكما قال:

لهم عن الرشد أغلالٌ وأقياد

وفي الخبر: أن أبا ذؤيب كان يهوى امرأة في الجاهلية، فلما أسلم راودته فأبى وأنشأ يقول:

فليس كعهد الدارِ يا أم مالكٍ ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل
وعاد الفتى كالكهلٍ ليس بقائلٍ سوى العدلِ شيئا فاستراح العواذلُ

أراد منعنا بموانع الإسلام عن تعاطي الزنا والفسق، وقال الفراء أيضا: هذا ضرب مثل؛ أي: حيسناهم عن الإنفاق في سبيل الله؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩] وقاله الضحاك، وقيل: إن هؤلاء صاروا في الاستكبار عن الحق كمن جعل في يده غل فجمعت إلى عنقه، فبقي رافعا رأسه لا يخفضه، وغاضا بصره لا يفتحه، والمتكبر يوصف بانتصاب العنق، وقال الأزهري: إن أيديهم لما غلَّت عند أعناقهم رفعت الأغلال أذقانهم ورؤوسهم صعدا كالإبل ترفع رؤوسها، وهذا المنع بخلق الكفر في قلوب الكفار، وعند قوم بسلبهم التوفيق عقوبة لهم على كفرهم، وقيل: الآية إشارة إلى ما يفعل بأقوام غدا في النار من وضع الأغلال في أعناقهم والسلاسل؛ كما قال تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ﴾ [غافر: ٧١] وأخبر عنه بلفظ الماضي، ﴿فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾ تقدم تفسيره، قال مجاهد: ﴿مُقْمَحُونَ﴾ مغلون عن كل خير.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهْمًا لَا يَبْصُرُونَ﴾ ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنََ الْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ قال مقاتل: لما عاد أبو جهل إلى أصحابه، ولم يصل إلى النبي ﷺ، وسقط الحجر من يده، أخذ الحجر رجل آخر من بني مخزوم وقال: أقتله بهذا الحجر، فلما دنا من النبي ﷺ طمس الله على بصره فلم ير النبي ﷺ، فرجع إلى أصحابه فلم

يبصرهم حتى نادوه، فهذا معنى الآية^(١)، وقال محمد بن إسحاق في روايته: جلس عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل، وأمية بن خلف، يرصدون النبي ﷺ ليلبغوا من أذاه؛ فخرج عليهم عليه السلام وهو يقرأ «يس» وفي يده تراب فرماهم به وقرأ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ فأطرقوا حتى مر عليهم عليه السلام^(٢)، وقد مضى هذا في سورة «سبحان»^(٣) ومضى في «الكهف»^(٤) الكلام في ﴿سَدًّا﴾ بضم السين وفتحها وهما لغتان، ﴿فَأَعْشَيْنَاهُمْ﴾ أي: غطينا أبصارهم؛ وقد مضى في أول «البقرة»^(٥)، وقرأ ابن عباس وعكرمة ويحيى بن يعمر: «فأعشيناهم» بالعين غير معجمة من العشاء في العين وهو ضعف بصرها حتى لا تبصر بالليل قال:

متى تأته تعشوا إلى ضوء ناره

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمُرْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ [الزخرف: ٣٦] الآية، والمعنى متقارب، والمعنى أعميناهم؛

كما قال:

ومن الحوادث لا أبالك أنني
لا أهندي فيها لموضع تلعة
ضربت علي الأرض بالأسداد
بين العذيب وبين أرض مراد

﴿فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ﴾ أي: الهدى؛ قاله قتادة^(٦)، وقيل: محمدا حين ائتمروا على قتله؛ قاله السدي^(٧)، وقال الضحاك ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: الدنيا^(٨) ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ أي: الآخرة؛ أي: عموا عن البعث وعموا عن قبول الشرائع في الدنيا؛ قال الله تعالى: ﴿وَقِيضْنَا لَهُمْ قُرْءَانَ فَرَيْنَا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥] أي: زينوا لهم الدنيا ودعوهم إلى التكذيب بالآخرة، وقيل: على هذا ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: غرورا بالدنيا ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ أي: تكذيبا بالآخرة، وقيل: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ الآخرة ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الدنيا، ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تقدم في «البقرة»^(٩) والآية رد على القدرية وغيرهم، وعن ابن شهاب: أن عمر بن عبد العزيز أحضر غيلان القدري فقال: يا غيلان بلغني أنك تتكلم بالقدر؛ فقال: يكذبون على يا أمير المؤمنين، ثم قال: يا أمير المؤمنين أرأيت قول الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [٢] إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان] قال: أقرأ يا غيلان فقرأ حتى انتهى إلى قوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٩] فقال اقرأ فقال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] فقال: والله يا أمير المؤمنين إن شعرت أن هذا في كتاب الله قط، فقال له: يا غيلان أقرأ أول سورة «يس» فقرأ حتى بلغ ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فقال غيلان: والله يا أمير المؤمنين لكأني لم أقرأها قط قبل اليوم؛ أشهد يا أمير المؤمنين أنني تائب، قال عمر: اللهم إن كان صادقا فتب عليه وثبته، وإن كان كاذبا

(١) معضلي: مقاتل هذا بعيد تماما عن زمان النبوة وقد أرسله وانظر: الطبري (١٥٨/٢٢) في تفسيره .

(٢) ضعيف: وقد سبق .

(٣- ٥) انظر الآية (٤٥) من سورة الإسراء و(٩٤) من سورة الكهف، و(٧) من سورة البقرة .

(٦) صحيح إلى قتادة: الطبري (١٥٩/٢٢) في تفسيره .

(٧) كذا عند ابن أبي حاتم (١٥٨/١٢) في تفسيره .

(٨) عزاه السيوطي (٥/٤٨٦) في الدر المنثور المخراطي في مساوئ الأخلاق .

(٩) عند الآية (٦) .

فسلط عليه من لا يرحمه واجعله آية للمؤمنين؛ فأخذه هشام فقطع يديه ورجليه وصلبه، وقال ابن عون: فانا رأيتَه مصلوبا على باب دمشق، فقلنا: ما شأنك يا غيلان؟ فقال: أصابني دعوة الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز^(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ يعني القرآن وعمل به، ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ أي: ما غاب من عذابه وناره؛ قاله قتادة^(٢) وقيل: أي: يخشاه في مغيبه عن أبصار الناس وانفراجه بنفسه، ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ أي: لذنبه ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ أي: الجنة.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ۝﴾
فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ أخبرنا تعالى بإحيائه الموتى ردا على الكفرة، وقال الضحاك والحسن: أي: نحييهم بالإيمان بعد الجهل^(٣)، والأول أظهر؛ أي: نحييهم بالبعث للجزاء، ثم توعدهم بذكره كتب الآثار.

الثانية: وإحصاء كل شيء وكل ما يصنعه الإنسان، قال قتادة: معناه من عمل، وقاله مجاهد وابن زيد^(٤)، ونظيره قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥]، وقوله: ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَ قَدِيمًا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]، وقال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨] فأثار المرء التي تبقى وتذكر بعد الإنسان من خير أو شر يجازى عليها: من أثر حسن؛ كعلم علموه، أو كتاب صفوه، أو حبس احتبسوه، أو بناء بنوه من مسجد أو رباط أو قنطرة أو نحو ذلك، أو سئى كوظيفة وظفها بعض الظلام على المسلمين، وسكة أحدثها فيها تخسيرهم، أو شيء أحدثه فيه صد عن ذكر الله من ألحان وملاه، وكذلك كل سنة حسنة، أو سيئة يستن بها، وقيل: هي آثار المشائين إلى المساجد^(٥)، وعلى هذا المعنى تأول الآية عمر وابن عباس وسعيد بن جبير^(٦)، وعن ابن عباس أيضا أن معنى ﴿وَأَثَرَهُمْ﴾: خطاهم إلى المساجد^(٧)، قال النحاس: وهذا أولى ما قيل فيه؛ لأنه قال: إن الآية نزلت

(١) القصة رويت من أوجه عدة، كما عند اللالكائي، من طريق المصنف بسند حسن برقم (١٣٢٣)، وقول ابن عون عنده (١٣٢٤) بسند صحيح إليه وكذا رواه الأجرى (٥٥٦) في الشريعة، ومن طريق أخرى عند اللالكائي (١٣٢٥) (١٣٢٦) في شرح أصول الاعتقاد، وانظرها عند عبد الله بن الإمام أحمد (٤٢٩ / ٢) برقم (٩٤٨) في السنة والأجرى (٥٥٥، ٥٥٧) في الشريعة.

(٢) صحيح: الطبري (١٥٩ / ٢٢) في تفسيره.

(٣) هذا معنى بعيد، وروى الطبري في تفسيره، عن قتادة ومجاهد وابن زيد: أنه سبحانه يُحصي ما عملوا، فقد كتب، وهذا ما تظاهرت به النصوص، وقاله ابن كثير (٣٦٧ / ٦) في تفسيره.

(٤) انظر التعليق السابق، والطبري (١٥٩ / ٢٢) في تفسيره.

(٥) وقد نفى ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره (١٣٦٨ / ٦) أن يكون هناك أى تعارض بين المعنيين: الآثار الباقية بعد الموت، أو آثار الخطأ إلى المساجد، قال: بل فيه تشبيه ودلالة، فإن الآثار تكتب تلك التي فيها قدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى، والله أعلم. ا. هـ.

(٦) انظر: تفسير ابن كثير (١٣٦٨ / ٦)، وأثر ابن جبير ضعيف، ففيه آبن لهيعة.

(٧) صحيح بشواهد: الطبري (١٥٩ / ٢٢، ١٦٠) في تفسيره من طريق سماك، عن عكرمة وفيه اضطراب، =

في ذلك؛ لأن الأنصار كانت منازلهم بعيدة عن المسجد، وفي الحديث مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال: «يكتب له برجل حسنة وتحط عنه برجل سيئة ذاهباً وراجعاً إذا خرج إلى المسجد»^(١).

قلت: وفي الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: كانت بنو سلمة في ناحية المدينة فأردوا النقلة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية: «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ» فقال رسول الله ﷺ «إن آثاركم تكتب» فلم ينتقلوا، قال: هذا حديث حسن غريب من حديث الثوري^(٢)، وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال: أراد بنو سلمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد؛ قال: والبقاع خالية؛ قال: فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم دياركم تكتب آثاركم» فقالوا: ما كان يسرنا أنا كنا نحولنا^(٣)، وقال ثابت البناني: مشيت مع أنس بن مالك إلى الصلاة فأسرعت، فحبسني فلما انقضت الصلاة قال: مشيت مع النبي ﷺ وأسرعت، فحبسني فلما انقضت الصلاة قال: «أما علمت أن الآثار تكتب»^(٤) فهذا احتجاج بالآية، وقال قتادة ومجاهد أيضاً والحسن: الآثار في هذه الآية الخطأ^(٥)، وحكى الثعلبي عن أنس أنه قال: الآثار هي الخطأ إلى الجمعة^(٦)، وواحد الآثار أثر ويقال: أثر.

الثالثة: في هذه الأحاديث المفسرة لمعنى الآية دليل على أن البعد من المسجد أفضل، فلو كان بجوار مسجد، فهل له أن يجاوزه إلى الأبعد؟ اختلف فيه، فروي عن أنس أنه كان يجاوز المحدث إلى القديم، وروي عن غيره: الأبعد فالأبعد من المسجد أعظم أجراً، وكره الحسن وغيره هذا؛ وقال: لا يدع مسجداً قربه ويأتي غيره، وهذا مذهب مالك، وفي تخطبي مسجده إلى المسجد الأعظم قولان، وخرج ابن ماجه من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الرجل في بيته بصلاة وصلاته في مسجد القبائل بخمس وعشرين صلاة وصلاته، في المسجد الذي يجمع فيه بخمسمائة صلاة»^(٧).

= وكذا رواه ابن ماجه فرواه (٧٨٥) في إقامة الصلاة والسنة فيها، عن سماك به، ولكن رواه الفريابي، عن سماك، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس به، وكذا رواه الطبراني (١٢٣١٠) وقواه ابن حجر (١٤٠ / ٢) في فتح الباري به.

(١) صحيح: رواه أحمد (١٧٢ / ٢) في المسند، وابن حبان (٢٣٩)، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «... وما من رجل يتطهر يَحْسِنُ الطهور ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد إلا كتب الله له بكل خطوة حسنة، ويرفعه بها درجة، ويحط عنه بها سيئة»، والنسائي (١ / ٢٦٠) برقم (٧٨٤) في المساجد، عن أبي هريرة - رضي الله عنه وصححه الألباني هناك و(٣ / ١٢٥) في التعليق الرغيب.

(٢) حسن غريب: الترمذي (٣٢٢٦) في التفسير، وصححه الألباني.

(٣) صحيح: مسلم (٢٨٠ / ٦٦٥) (٢٨١ / ٦٥٦) في المساجد ومواضع الصلاة.

(٤) حسن: الطبري (١٦٠ / ٢٢) في تفسيره، وابن كثير (٦ / ٣٦٨) في تفسيره.

(٥) صحيح: أثر قتادة والحسن ومجاهد كذا عند الطبري (١٦١ / ٢٢) في تفسيره.

(٦) هذا ضعيف، والله أعلم.

(٧) ضعيف: ابن ماجه (١٤١٣) في إقامة الصلاة والسنة فيها وضعفه الألباني هناك، و(٧٥٢) في المشكاة.

وقوله: «يجمع فيه» أي تصلي فيه الجمعة.

الرابعة: دياركم منصوب على الإغراء أي: الزموا، و«تكتب» جزم على جواب ذلك الأمر، و«وكل» صب بفعل مضمر يدل عليه «أحصيناه» كأنه قال: وأحصينا كل شيء أحصيناه، ويجوز رفعه بالابتداء إلا أن نصبه أولى؛ ليعطف ما عمل فيه الفعل على ما عمل فيه الفعل، وهو قول الخليل وسيبويه، والإمام: الكتاب المستدق به الذي هو حجة، وقال مجاهد وقتادة «ابن زيد: أراد اللوح المحفوظ^(١)»، وقالت فرقة: أراد صحائف الأعمال.

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴿١٧﴾ قَالُوا مَا أَتُنَّا بِإِنبَاءٍ مِثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٩﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٢٠﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّرْتَهْتُمُ اللَّزِيمَ وَالْيَمِينَكُمْ مِمَّا تَدَّابُّ إِلَيْهِمْ ﴿٢١﴾ قَالُوا طَئِرُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ خطاب للنبي ﷺ، أمر أن يضرب لقومه مثلاً بأصحاب القرية، هذه القرية هي أنطاكية في قول جميع المفسرين فيما ذكر الماوردي، نسبت إلى أهل أنطيبس وهو اسم الذي بناها ثم غير لما عرب؛ ذكره السهيلي، ويقال فيها: أنتاكية بالتاء بدل الطاء، وكان بها فرعون يقال له: أنطبخس بن أنطبخس يعبد الأصنام؛ ذكره المهدي، وحكاه أبو جعفر النحاس عن كعب ووهب، فأرسل الله إليه ثلاثة: وهم صادق، وصدوق، وشلوم هو الثالث، هذا قول الطبري، وقال غيره: شمعون ويوحنا، وحكى النقاش: سمعان ويحيى، ولم يذكر صادقاً ولا صدوقاً^(٢)، ويجوز أن يكون «مثلاً» و«أصحاب القرية» مفعولين لـ «اضرب»، أو «أصحاب القرية» بدلا من «مثلاً» أي: اضرب لهم مثل أصحاب القرية فحذف المضاف، أمر النبي ﷺ بإنذار هؤلاء المشركين أن ما يحل بهم ما حل بكفار أهل القرية المبعوث إليهم ثلاثة رسل، قيل: رسل من الله على الابتداء، وقيل: إن عيسى بعثهم إلى أنطاكية للدعاء إلى الله، وهو قوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ أضاف الرب ذلك إلى نفسه؛ لأن عيسى أرسلهما بأمر الرب، وكان ذلك حين رفع عيسى إلى السماء، ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ قيل ضربوهما وسجنوهما

﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي: فقويتنا وشددنا الرسالة ﴿بِثَالِثٍ﴾، وقرأ أبو بكر عن عاصم: «فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ» بالتخفيف^(٣) وشدد الباقون، قال الجوهري: وقوله تعالى: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ يخفف ويشدد؛

(١) إنما قالوا: (في أم الكتاب) كما عند الطبري (٢٢/ ١٦٠) في تفسيره، وعنه ابن كثير (٦/ ٣٦٩) في تفسيره. وانظر ابن أبي حاتم (١٢/ ٦٠) في تفسيره، وعزاه السيوطي (٥/ ٤٨٩) في الدر المنثور لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن الضريس في فضائل القرآن، ولا بن المنذر أيضاً.

(٢) ضعيف: رواه الطبري (٢٢/ ١٦١، ١٦٢) في تفسيره، عن ابن إسحاق فيما بلغه، عن ابن عباس، وكعب، ووهب!! وهو عن شيخه: محمد بن حميد وضعفه بين.

وهذه الأسماء كما تراها إسرائيلية منقولة عن أهل الكتب السابقة.

(٣) قراءة سبعة متواترة: تقريب النشر (ص ١٦٤).

أي: قوينا وشددنا، قال الأصمعي: أنشدني فيه أبو عمرو بن العلاء للمتلمس:
أُجِدُّ إِذَا رَحَلَتْ تَعَزَّزَ لَحْمُهَا وَإِذَا تُشَدُّ نَسْنَعُهَا لَا تَبْسُ

أي: لا ترغو؛ فعلى هذا تكون القراءةان بمعنى، وقيل: التخفيف بمعنى غلبنا وقهرنا؛
ومنه: ﴿وَعَزَّيْنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣]، والتشديد بمعنى قوينا وكثرنا، وفي القصة^(١): أن عيسى أرسل
إليهم رسولين فلقيا شيخا يرعى غنيمات له وهو حبيب النجار صاحب «يس» فدعوه إلى الله وقال:
نحن رسولا عيسى ندعوك إلى عبادة الله، فطالبهما بالمعجزة فقالا: نحن نشفي المرضى وكان له ابن
مجنون، وقيل: مريض على الفراش فمسحاه، فقام بإذن الله صحيحا؛ فأمن الرجل بالله، وقيل: هو
الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، ففشا أمرهما، وشفيا كثيرا من المرضى، فأرسل الملك إليهما
- وكان يعبد الأصنام - يستخبرهما فقالا: نحن رسولا عيسى، فقال: وما آيتكما؟ قال: نبؤ الأكمة
والأبرص ونبؤ المريض بإذن الله، وندعوك إلى عبادة الله وحده، فهم الملك بضربهما، وقال وهب:
حبسهما الملك وجلدتهما مائة جلدة؛ فانتهى الخبر إلى عيسى فأرسل ثالثا، قيل: شمعون الصفا رأس
الحواريين - لنصرهما، فعاشر حاشية الملك حتى تمكن منهم، واستأنسوا به، ورفعوا حديثه إلى الملك
فأنس به، وأظهر موافقته في دينه، فرضي الملك طريقته، ثم قال يوما للملك: بلغني أنك حبست
رجلين دعواك إلى الله، فلو سألت عنهما: ما وراءهما؟ فقال: إن الغضب حال بيني وبين
سؤالهما، قال: فلو أحضرتهما، فأمر بذلك؛ فقال لهما شمعون: ما برهانكما على ما تدعيان؟
فقالا: نبؤ الأكمة والأبرص، فجيء بغلام ممسوح العينين؛ موضع عينيه كالجبهة، فدعوا ربهما
فانشق موضع البصر، فأخذنا بندقتين طينا فوضعاهما في خديه، فصارتا مقلتين يبصر بهما؛ فعجب

(١) لم يثبت هذا أبداً، ولا ثبت اسم حبيب النجار إلا بأسانيد ضعاف، وعسى عليه السلام بعث كباقي الأنبياء قبله
ﷺ إلى قومه خاصة - من بني إسرائيل - باعتراف الإنجيل نفسه بقوله: «إنما بعثت إلى خراف بني إسرائيل
الضالّة» ثم بالنص القطعي ثبت أنه لا نبي بين عيسى عليه السلام وبين نبينا محمد ﷺ، ثم وجدت ابن كثير
نقله في تفسيره (٦/ ٣٦٩)، عن ابن جريج، عن وهب بن سليمان، عن شعيب الجبائي، وشعيب
كذاب، وابن جريج مدلس، وكذا رواه مسلاً، عن قتادة فلا يصح أبداً، والله أعلم.
وفى أنهم رسل المسيح نظر:

- فإن ظاهر القصة يدل على أن أهؤلاء كانوا رسلاً من عند الله تعالى، لا من جهة المسيح عليه السلام فالقرآن
يقول: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ﴾، وعلى لسانهم: ﴿قَالُوا رَبَّنَا عَلِّمْنَا لِنَا إِلَيْنَا لَعَلَّ نَحْمَلُهَا﴾ ولو كانوا من الحواريين لقالوا
عبارة تناسب ذلك، ولما قالوا: إنهم من عند الله تعالى فقد قالوا: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلَنَا﴾.

- أن أهل أنطاكية آمنوا برسول المسيح إليهم، وكانوا أول أهل مدينة أمنت بالمسيح، ولهذا كانت عند النصارى
يُحَدِّدُ المدن الأربعة اللاتي فهن بطاركة - بمعنى أساقفة، وهن: القدس؛ لأنها ولد المسيح، وأنطاكية؛ لأنها
أول بلدة أمنت بالمسيح، والإسكندرية، لأن فيها اصطلحوا على اتخاذ البطاركة والمطارنة...، رومية...
وأهل هذه القرية ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله، وأنه أهلهم بصيحة واحدة.

- أن قصة أنطاكية مع الحواريين من أصحاب المسيح بعد نزول التوراة، وقد ذُكر أبو سعيد الخدري - رضي الله
عنه - وكثر من السلف أن الله تبارك وتعالى بعد إزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه
عليهم؛ بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين، ذكروه عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا
الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ [القصص: ٤٣] فعلى هذا يتعين أن القرية المذكورة غير أنطاكية، والله أعلم. تفسير ابن كثير (٦/ ٣٧٣)
بتصرف.

الملك وقال: إن ها هنا غلاما مات منذ سبعة أيام ولم أدفنه حتى يجيء أبوه فهل يحييه ربكما؟ فدعوا الله علانية، ودعاه شمعون سرا، فقام الميت حيا، فقال للناس: إني مت منذ سبعة أيام، فوجدت مشركا، فأدخلت في سبعة أودية من النار، فأحذركم ما أنتم فيه فأمنوا بالله، ثم فتحت أبواب السماء، فرأى شابا حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة شمعون وصاحبيه، حتى أحياني الله، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن عيسى روح الله وكلمته، وأن هؤلاء هم رسل الله، فقالوا له وهذا شمعون أيضا معهم؟ قال: نعم وهو أفضلهم، فأعلمهم شمعون أنه رسول المسيح إليهم، فآثر قوله في الملك، فدعاه إلى الله، فأمن الملك في قوم كثير وكفر آخرون.

وحكى القشيري: أن الملك آمن ولم يؤمن قومه، وصاح جبريل صيحة مات كل من بقي منهم من الكفار، وروي أن عيسى لما أمرهم أن يذهبوا إلى تلك القرية قالوا: يا نبي الله، إنا لا نعرف أن نتكلم بالسنتهم ولغاتهم، فدعا الله لهم فناموا بمكانهم، فهبوا من نومتهم قد حملتهم الملائكة قالفتهم بأرض أنطاكية، فكلم كل واحد صاحبه بلغة القوم؛ فذلك قوله: ﴿وَأَيْدِنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧] فقالوا جميعا: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾ ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ تاكلون الطعام وتمشون في الأسواق: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا الرَّحْمَانَ مِنْ شَيْءٍ﴾ يأمر به ولا من شيء ينهى عنه ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ في دعواكم الرسالة؛ فقالت الرسل: ﴿رَبَّنَا عَلِّمْنَا لِنَا إِلَيْكُمْ لِمَنْ مَرْسَلُونَ﴾ وإن كذبتمونا ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ في أن الله واحد ﴿قَالُوا﴾ لهم:

﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي: تشاء منا بكم، قال مقاتل: حبس عنهم المطر ثلاث سنين فقالوا: هذا بشؤمكم^(١)، ويقال: إنهم أقاموا يندرونهم عشر سنين، ﴿لَنْ لَمْ تَنْتَهُوا﴾ عن إنذارنا ﴿لَنْ رَجُمْنَاكُمْ﴾ قال الفراء: لنقتلنكم، قال: وعامة ما في القرآن من الرجم معناه القتل، وقال قتادة: هو على بابه من الرجم بالحجارة، وقيل: لنشتنكم؛ وقد تقدم جميعه، ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قيل: هو القتل، وقيل: هو التعذيب المؤلم، وقيل: هو التعذيب المؤلم قبل القتل كالسلخ والقطع والصلب، فقالت الرسل: ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ أي: شؤمكم معكم أي: حظكم من الخير والشر معكم ولازم في أعناقكم، وليس هو من شؤمنا؛ قال معناه الضحاك، وقال قتادة: أعمالكم معكم، ابن عباس: معناه الأرزاق والأقدار تتبعكم، الفراء «طائركم معكم» رزقكم وعملكم؛ والمعنى واحد، وقرأ الحسن: «اطيركم» أي: تطيركم، ﴿أَنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ قال قتادة: إن ذكرتم تطيرتم، وفيه تسعة أوجه من القراءات: قرأ أهل المدينة «أين ذكرتم» بتخفيف الهمزة الثانية، وقرأ أهل الكوفة: «أئن» بتحقيق الهمزتين، والوجه الثالث: «الإن ذكرتم» بهمزتين بينهما ألف، أدخلت الألف كراهة للجمع بين الهمزتين، والوجه الرابع: «أأن» بهمزة بعدها ألف وبعد الألف همزة مخففة، والقراءة الخامسة: «أأن» بهمزتين مفتوحتين بينهما ألف، والوجه السادس: «أأن» بهمزتين محققتين مفتوحتين، وحكى الفراء: أن هذه القراءة قراءة أبي رزين .

قلت: وحكاه الثعلبي عن زر بن حبيش وابن السميع، وقرأ عيسى بن عمر والحسن البصري: «قالوا طائرکم معکم أين ذکرتم» بمعنى حيث، وقرأ يزيد بن القعقاع والحسن وطلحة «ذکرتم»

بالتخفيف؛ ذكر جميعه النحاس^(١)، وذكر المهدي عن طلحة بن مصرف وعيسى الهمداني «أن ذكرت» بالمد، على أن همزة الاستفهام دخلت على همزة مفتوحة. الماجشون: «أن ذكرت» بهمزة واحدة مفتوحة، فهذه تسع قراءات، وقرأ ابن هرمز: «طيركم معك أئن ذكرت» أي: لأن وعظمت؛ وهو كلام مستأنف، أي: إن وعظمت تطيرتم، وقيل: إنما تطيروا لما بلغهم أن كل نبي دعا قومه فلم يجيبوه كان عاقبتهم الهلاك، «بل أنتم قوم مسرفون» قال قتادة: مسرفون في تطيركم^(٢). يحيى بن سلام: مسرفون في كفركم، وقال ابن بحر: السرف ها هنا الفساد، ومعناه بل أنتم قوم مفسدون، وقيل: مسرفون مشركون، والإسراف: مجاوزة الحد، والمشرك يجاوز الحد.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَفْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرَدِّنَا رُحْمَانٌ يَغْرِسُ يُضِرُّ لِآثِنِينَ عَنِّي شَفَعْتُهُنَّ شَيْئًا وَلَا يُتَّقُونَ ﴿١٣﴾ إِنْ إِيَّايَ اتَّخَذُوا مُبْتَدِئِينَ ﴿١٤﴾ إِنْ إِيَّايَ آمَنَتْ بَرِيكَةٌ فَأَسْمَعُونَ ﴿١٥﴾ قِيلَ أَدْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلِيَّتْ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ بِنَا عَقَرَلِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿١٧﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿١٨﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَفْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ هو حبيب بن مري وكان نجارا، وقيل: إسكافا، وقيل: قصارا، وقال ابن عباس ومجاهد ومقاتل: هو حبيب بن إسرائيل النجار وكان ينحت الأصنام، وهو ممن آمن بالنبي ﷺ وبينهما ستمائة سنة، كما آمن به تبع الأكبر وورقة بن نوفل وغيرهما، ولم يؤمن بنبي أحد إلا بعد ظهوره^(٣)، قال وهب^(٤): وكان حبيب مجذوما، ومنزله عند أقصى باب من أبواب المدينة، وكان يعكف على عبادة الأصنام سبعين سنة يدعوهم، لعلهم يرحمونه ويكشفون ضره فما استجابوا له، فلما أبصر الرسل دعوه إلى عبادة الله فقال: هل من آية؟ قالوا: نعم، ندعو ربنا القادر فيفرج عنك ما بك، فقال: إن هذا لعجب! أدعو هذه الآلهة سبعين سنة تفرج عني فلم تستطع، فكيف يفرجه ربكم في غداة واحدة؟ قالوا: نعم، ربنا على ما يشاء قدير، وهذه لا تنفع شيئا ولا تضر، فأمن ودعوا ربهم فكشف الله ما به، كأن لم يكن به بأس، فحينئذ أقبل على التكسب، فإذا أمسى تصدق بكسبه، فأطعم عياله نصفا وتصدق بنصف، فلما هم قومه بقتل الرسل

(١) صحيح إليه: الطبري (٢٢/ ١٦٤) في تفسيره ..

(٢، ٣) ضعيف: السند إلى ابن عباس ضعيف جداً، ففيه انقطاع بينه وبين ابن إسحاق ثم فيه عن عنة ابن إسحاق وهو مدلس، ورواه ابن إسحاق من طريق آخر موصول وفيه عن عنته ولم يصرح بالتحديث، والقصة باطلة .
وقصة إسلامه إنما هي، عن كعب الأحبار وهو ناقل كبير للإسرائيليات هذا كله عند الطبري (٢٢/ ١٦٤)،
١٦٥، ١٦٦) في تفسيره .

(٤) وهذا باطل أيضاً، وانظر الطبري (٢٢/ ١٦٦) في تفسيره.

جاءهم، ف ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ الآية، وقال قتادة^(١): كان يعبد الله في غار، فلما سمع بخير المرسلين جاء يسعى، فقال للمرسلين: أتطلبون على ما جئتم به أجراً؟ قالوا: لا ما أجرنا إلا على الله، قال أبو العالية^(٢): فاعتقد صدقهم وآمن بهم وأقبل على قومه ف ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ أي: لو كانوا متهمين لطلبوا منكم المال: ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ فاهتدوا بهم، ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ قال قتادة: قال له قومه أنت على دينهم؟! فقال: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي: خلقتني، ﴿وَالَّذِي تَرْجَعُونَ﴾ وهذا احتجاج منه عليهم، وأضاف الفطرة إلى نفسه؛ لأن ذلك نعمة عليه توجب الشكر، والبعث إليهم؛ لأن ذلك وعيد يقتضي الزجر؛ فكان إضافة النعمة إلى نفسه اظهر شكرا، وإضافة البعث إلى الكافر أبلغ أثرا.

قوله تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني أصناما، ﴿إِنْ يُرِيدَنَّ الْوَحْمَنُ بِضُرٍّ﴾ يعني ما أصابه من السقم، ﴿لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونَ﴾ يخلصوني مما أنا فيه من البلاء ﴿إِنِّي إِذَا﴾ يعني إن فعلت ذلك ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي: خسران ظاهر، ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ﴾ قال ابن مسعود: خاطب الرسل بأنه مؤمن بالله ربهم، ومعنى ﴿فَاسْمِعُونِ﴾ أي: فاشهدوا، أي: كونوا شهودي بالإيمان، وقال كعب وهب: إنما قال ذلك لقومه: إني آمنت بربكم الذي كفرتم به، وقيل: إنه لما قال لقومه: ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ رفعوه إلى الملك وقالوا: قد تبعنا عدونا؛ فطول معهم الكلام ليشغلهم بذلك عن قتل الرسل، إلى أن قال: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فوثبوا عليه فقتلوه، قال ابن مسعود^(٣): وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبُهُ^(٤) من دبره، وألقي في بئر وهي الرس وهم أصحاب الرس، وفي رواية أنهم قتلوا الرسل الثلاثة، وقال السدي^(٥): رموه بالحجارة وهو يقول اللهم اهد قومي حتى قتلوه، وقال الكلبي^(٦): حضروا حفرة وجعلوه فيها، ورددوا فوقه التراب فمات ردما، وقال الحسن: حرقوه حرقا، وعلقوه من سور المدينة وقبره في سور أنطاكية؛ حكاه الثعلبي، وقال القشيري وقال الحسن: لما أراد القوم أن يقتلوه رفعه الله إلى السماء، فهو في الجنة لا يموت إلا بفناء السماء وهلاك الجنة، فإذا أعاد الله الجنة أدخلها، وقيل: نشره بالمنشار حتى خرج من بين رجله، فوالله ما خرجت روحه إلا إلى الجنة فدخلها؛ فذلك قوله: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾، فلما شاهدها ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ أي: بغفران ربي لي؛ فـ «ما» مع الفعل بمنزلة المصدر، وقيل: بمعنى الذي والعائد من الصلة محذوف، ويجوز أن تكون استفهاما فيه معنى التعجب، كأنه قال ليت قومي يعلمون بأي شيء غفر لي ربي؛ قاله الفراء، واعترضه الكسائي فقال: لو صح هذا لقال: بم من غير ألف، وقال الفراء: يجوز أن يقال: بما بالألف وهو استفهام وأنشد فيه أبياتا. الزمخشري «بم غفر لي» بطرح الألف أجود، وإن كان إثباتها جائزا؛ يقال: قد علمت بما صنعت هذا وبم صنعت، المهدي: وإثبات الألف في الاستفهام قليل، فيوقف على هذا على ﴿يَعْلَمُونَ﴾، وقال جماعة: معنى ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ ووجبت لك الجنة؛ فهو خير بأنه قد استحق دخول الجنة؛ لأن دخولها يستحق بعد

(١، ٢، ٣، ٥، ٦) لا تصح: لبطان القصة، والسند إلى ابن مسعود فيه انقطاع كما عند الطبري (٢٢ / ١٦٧)

في تفسيره من طريق ابن إسحاق، عن ابن مسعود به.

(٤) قصبه - بالضم: المعى واحدة الأمعاء، كما في النهاية (٤ / ٦٧) لابن الأثير.

البعث .

قلت : والظاهر من الآية أنه لما قتل قليل له ادخل الجنة، قال قتادة : أدخله الله الجنة وهو فيها حي يرزق؛ أراد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] على ما تقدم في «آل عمران» بيانه، والله أعلم .

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ وهو مرتب على تقدير سؤال سائل عما وجد من قول عند ذلك الفوز العظيم الذي هو : ﴿بِمَا غَفَر لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ وقرئ «من المُكْرَمِينَ» وفي معنى تمنيه قولان: أحدهما : أنه تمنى أن يعلموا بحاله ليعلموا حسن مآله وحميد عاقبته، الثاني: تمنى ذلك ليؤمنوا مثل إيمانه فيصيروا إلى مثل حاله، قال ابن عباس: نصح قومه حيا وميتا^(١)، رفعه القشيري فقال: وفي الخبر أنه عليه السلام قال في هذه الآية: «إنه نصح لهم في حياته وبعد موته»^(٢)، وقال ابن أبي ليلى: سبأق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين: علي بن أبي طالب وهو أفضلهم، ومؤمن آل فرعون، وصاحب يس، فهم الصديقون^(٣)؛ ذكره الزمخشري مرفوعا عن رسول الله ﷺ، وفي هذه الآية تنبيه عظيم، ودلالة على وجوب كظم الغيظ، والحلم عن أهل الجهل، والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي، والتشمر في تخليصه، والتلطف في افتدائه، والاستغفال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه، ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته، والباغين له الغوائل وهم كفرة عبدة أصنام، فلما قتل حبيب غضب الله له وعجل النقمة على قومه، فأمر جبريل فصاح بهم صيحة فماتوا عن آخرهم؛ فذلك قوله: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ أي: ما أنزلنا عليهم من رسالة ولا نبي بعد قتله؛ قاله قتادة ومجاهد والحسن^(٤)، قال الحسن: الجند الملائكة النازلون بالوحي على الأنبياء^(٥)، وقيل: الجند العساكر؛ أي: لم أحتج في هلاكهم إلى إرسال جنود ولا جيوش ولا عساكر؛ بل أهلكتهم بصيحة واحدة، قال معناه ابن مسعود وغيره، فقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ تصغير لأمرهم؛ أي: أهلكتهم بصيحة واحدة من بعد ذلك الرجل، أو من بعد رفعه إلى السماء، وقيل: ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ على من كان قبلهم، الزمخشري: فإن قلت: فلم أنزل الجنود من السماء يوم بدر والخندق؟ فقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩]، وقال: ﴿بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤]، «بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥] .

قلت: إنما كان يكفي ملك واحد، فقد أهلكت مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل، وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة، ولكن الله فضل محمدا ﷺ بكل شيء على سائر الأنبياء وأولي العزم من

(١) ذكره ابن كثير (٦ / ٣٧١) في تفسيره .

(٢) لا يصح : ذكره الألوسي (٧ / ٢٠٨) في روح المعاني ولا أصل له .

(٣) موضوع : آقره الذهبي (ص ٣٠٩) في مختصر المنهاج ، وقد رواه الديلمي (٢ / ٤٢١) في مسند الفردوس . قلت : وفيه الكدعي : محمد بن يونس وهو كذاب ، وفيه عمر بن جميع متهم بالوضع ، وانظر : ضعيف

الجامع (٣٥٤٩) للألباني - رحمه الله .

(٤) كذا قال مجاهد كما في الطبري (٢٣ / ٣) بسند صحيح إليه .

(٥) ذكره الماوردي (٣ / ٤٤٢) في تفسيره المسمى بـ (النكت والعيون) .

الرسول فضلا عن حبيب النجار، وأولاه من أسباب الكرامة والإعزاز ما لم يوله أحدا؛ فمن ذلك أنه أنزل له جنودا من السماء، وكأنه أشار بقوله: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا﴾، ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ إلى أن إنزال الجنود من عظام الأمور التي لا يؤهل لها إلا مثلك، وما كنا نفعل لغيرك، ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيِّحَةً وَاحِدَةً﴾ قراءة العامة: ﴿وَاحِدَةً﴾ بالنصب على تقدير ما كانت عقوبتهم إلا صيحة واحدة .

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة والأعرج «صَيِّحَةً» بالرفع هنا^(١)، وفي قوله: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيِّحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ﴾ جعلوا الكون بمعنى الوقوع والحدوث؛ فكأنه قال: ما وقعت عليهم إلا صيحة واحدة، وأنكر هذه القراءة أبو حاتم وكثير من النحويين بسبب التأنيث فهو ضعيف؛ كما تقول: ما قامت إلا هند ضعيفا؛ من حيث كان المعنى ما قام أحد إلا هند، قال أبو حاتم: فلو كان كما قرأ أبو جعفر لقال: إن كان إلا صيحة، قال النحاس: لا يمتنع شيء من هذا، يقال: ما جاءني إلا جاريتك، بمعنى ما جاءني امرأة أو جارية إلا جاريتك، والتقدير في القراءة بالرفع ما قاله أبو إسحاق، قال: المعنى إن كانت عليهم صيحة إلا صيحة واحدة، وقدره غيره: ما وقع عليهم إلا صيحة واحدة، وكان بمعنى وقع كثير في كلام العرب، وقرأ عبدالرحمن بن الأسود - ويقال إنه في حرف عبد الله كذلك: «إن كانت إلا زقة واحدة»، وهذا مخالف للمصحف، وأيضا فإن اللغة المعروفة زقا يزقو إذا صاح، ومنه المثل: أثقل من الزواقي؛ فكان يجب على هذا أن يكون زقوة، ذكره النحاس .

قلت: وقال الجوهري: الزقو والزقي مصدر، وقد زقا الصدى يزقو زقاء: أي: صاح، وكل صائح زاق، والزقية الصيحة .

قلت: وعلى هذا يقال: زقوة وزقية لغتان؛ فالقراءة صحيحة لا اعتراض عليها، والله أعلم، ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ أي: ميتون هامدون؛ تشبيها بالرماد الخامد، وقال قتادة: هلكى، والمعنى واحد .

﴿يَحْسِرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَمًا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ ﴿﴾

قوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ﴾ منصوب؛ لأنه نداء نكرة ولا يجوز فيه غير النصب عند البصريين، وفي حرف أبي «يا حسرة العباد» على الإضافة، وحقيقة الحسرة في اللغة أن يلحق الإنسان من الندم ما يصير به حسيرا، وزعم الفراء أن الاختيار النصب، وأنه لو رفعت النكرة الموصولة بالصلة كان صوابا، واستشهد بأشياء منها أنه سمع من العرب: يا مهتم بأمرنا لا تهتم، وأنشد:

يَا دَارُ غَيْرِهَا الْبَلَى تَغْيِيرًا

قال النحاس: وفي هذا إبطال باب النداء أو أكثره؛ لأنه يرفع النكرة المحضمة، ويرفع ما هو بمنزلة المضاف في طول، ويحذف التنوين متوسطا، ويرفع ما هو في المعنى مفعول بغير علة أوجبت ذلك،

(١) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص ١٦٤) .

فأما ما حكاه عن العرب فلا يشبه ما أجازاه؛ لأن تقدير يا مهتم بأمرنا لا تهتم على التقديم والتأخير، والمعنى: يا أيها المهتم لا تهتم بأمرنا، وتقدير البيت: يا أيها الدار، ثم حول المخاطبة؛ أي: يا هؤلاء غير هذه الدار البلى؛ كما قال الله جل وعز: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمُ﴾ [يونس: ٢٢]، ف ﴿حَسْرَةً﴾ منصوب على النداء؛ كما تقول: يا رجلا أقبل، ومعنى النداء: هذا موضع حضور الحسرة، الطبري^(١): المعنى يا حسرة من العباد على أنفسهم وتندما وتلهفا في استهزائهم برسول الله عليهم السلام، ابن عباس: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ أي: يا ويلا على العباد^(٢)، وعنه أيضا: حل هؤلاء محل من يتحسر عليهم^(٣)، وروى الربيع عن أنس عن أبي العالية أن العباد ها هنا الرسل؛ وذلك أن الكفار لما رأوا العذاب قالوا: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ فتحسروا على قتلهم، وترك الإيمان بهم؛ فتمنوا الإيمان حين لم ينفعهم الإيمان؛ وقاله مجاهد^(٤)، وقال الضحاك: إنها حسرة الملائكة على الكفار حين كذبوا الرسل^(٥)، وقيل: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ من قول الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، لما وثب القوم لقتله، وقيل: إن الرسل الثلاثة هم الذين قالوا لما قتل القوم ذلك الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، وحل بالقوم العذاب: يا حسرة على هؤلاء، كأنهم تمنوا أن يكونوا قد آمنوا، وقيل: هذا من قول القوم قالوا لما قتلوا الرجل وفارقتهم الرسل، أو قتلوا الرجل مع الرسل الثلاثة، على اختلاف الروايات: يا حسرة على هؤلاء الرسل، وعلى هذا الرجل، ليتنا آمننا بهم في الوقت الذي ينفع الإيمان، وتم الكلام على هذا، ثم ابتداء فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رُّسُولٍ﴾، وقرأ ابن هرمز ومسلم بن جندب وعكرمة: «يا حسرة على العباد» بسكون الهاء للحرص على البيان وتقرير المعنى في النفس؛ إذ كان موضع وعظ وتنبه والعرب تفعل ذلك في مثله، وإن لم يكن موضعا للوقف، ومن ذلك ما روي عن النبي ﷺ أنه كان يقطع قراءته حرفا حرفا؛ حرصا على البيان والإفهام، ويجوز أن يكون ﴿عَلَى الْعِبَادِ﴾ متعلقا بالحسرة، ويجوز أن يكون متعلقا بمحذوف لا بالحسرة؛ فكانه قدر الوقف على الحسرة فأسكن الهاء، ثم قال: ﴿عَلَى الْعِبَادِ﴾ أي: أتحسر على العباد، وعن ابن عباس والضحاك وغيرهما «يا حسرة العباد» مضاف بحذف «على»، وهو خلاف المصحف، وجاز أن يكون من باب الإضافة إلى الفاعل فيكون العباد فاعلين؛ كأنهم إذا شاهدوا العذاب تحسروا فهو كقولك يا قيام زيد، ويجوز أن تكون من باب الإضافة إلى المفعول، فيكون العباد مفعولين؛ فكان العباد يتحسر عليهم من يشفق لهم، وقراءة من قرأ: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ مقوية لهذا المعنى.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ قال سيبويه: «أن» بدل من ﴿كَمْ﴾، ومعنى «كم» ها هنا الخبر؛ فلذلك جاز أن يبدل منها ما ليس باستفهام، والمعنى: ألم يروا أن القرون الذين أهلكتناهم أنهم إليهم لا يرجعون، وقال الفراء ﴿كَمْ﴾ في موضع نصب من وجهين: أحدهما بـ ﴿يَرَوْا﴾ واستشهد على هذا بأنه في قراءة ابن مسعود: «ألم يروا من أهلكتنا»، والوجه

(١) الطبري (٢٣/ ٤) في تفسيره .

(٢) ضعيف : منقطع بين علي بن أبي طلحة ، وابن عباس - رضي الله عنهما ، وانظر : تفسير الطبري (٢٣/ ٤).

(٣) النكت والعيون (٣/ ٤٤٢) للماوردي .

(٤) صحيح إلى مجاهد وأبي العالية : النكت والعيون (٣/ ٤٤٢) للماوردي ، والطبري (٢٣/ ٤) في تفسيره .

(٥) النكت والعيون (٣/ ٤٤٢) للماوردي .

الآخر أن يكون ﴿كَمْ﴾ في موضع نصب بـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾، قال النحاس: القول الأول محال؛ لأن ﴿كَمْ﴾ لا يعمل فيها ما قبلها؛ لأنها استفهام، ومحال أن يدخل الاستفهام في خير ما قبله، وكذا حكمها إذا كانت خيراً، وإن كان سبويه قد أوماً إلى بعض هذا فجعل: ﴿أَنْهُمْ﴾ بدلا من كم، وقد رد ذلك محمد بن يزيد أشد رد، وقال: ﴿كَمْ﴾ في موضع نصب بـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾ و﴿أَنْهُمْ﴾ في موضع نصب، والمعنى عنده بأنهم أي ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ بالاستتصال، قال: والدليل على هذا أنها في قراءة عبدالله: «من أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجون».

وقرأ الحسن: «إنهم إليهم لا يرجعون» بكسر الهمزة على الاستئناف، وهذه الآية رد على من زعم أن من الخلق من يرجع قبل القيامة بعد الموت، ﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ يريد يوم القيامة للجزء، وقرأ ابن عامر وعاصم وحزمة ﴿إِنْ كُلُّ لَمَّا﴾ بتشديد ﴿لَمَّا﴾، وخفف الباقون، فـ ﴿إِنْ﴾ مخففة من الثقيلة وما بعدها مرفوع بالابتداء، وما بعده الخبر، وبطل عملها حين تغير لفظها، ولزمت اللام في الخبر فرقا بينها وبين إن التي بمعنى ما، «وما» عند أبي عبيدة زائدة، والتقدير عنده: وإن كل لجميع، قال الفراء: ومن شدد جعل ﴿لَمَّا﴾ بمعنى إلا و﴿إِنْ﴾ بمعنى ما، أي: ما كل إلا لجميع؛ كقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون: ٢٥]، وحكى سبويه في قوله: سألتك بالله لما فعلت، وزعم الكسائي أنه لا يعرف هذا، وقد مضى هذا المعنى في «هود»، وفي حرف أبي: «وإن منهم إلا جميع لدينا محضرون».

﴿وَأَيُّ لِهْمُ الْأَرْضِ الْمَيِّتَةِ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لِهْمُ الْأَرْضِ الْمَيِّتَةِ أَحْيَيْنَاهَا﴾ نبههم الله تعالى بهذا على إحياء الموتى، وذكرهم توحيدهم وكمال قدرته، وهي الأرض الميتة أحياءها بالنبات وإخراج الحب منها، ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ ﴿فَمِنْهُ﴾ أي: من الحب ﴿يَأْكُلُونَ﴾ وبه يتغذون، وشدد أهل المدينة: «الميتة» وخفف الباقون، وقد تقدم، ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي: في الأرض، ﴿جَنَّاتٍ﴾ أي: بساتين، ﴿مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ وخصصهما بالذكر؛ لأنهما أعلى الثمار، ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ أي: في البساتين، ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ الهاء في ﴿ثَمَرِهِ﴾ تعود على ماء العيون؛ لأن الثمر منه اندرج؛ قاله الجرجاني والمهدوي وغيرهما، وقيل: أي: لياكلوا من ثمر ما ذكرنا؛ كما قال: ﴿وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِيُتَّقِيَكُمْ مِمَّا فِي بَطُونِهِ﴾ [النحل: ٦٦]، وقرأ حمزة والكسائي: «من ثمره»^(١) بضم الثاء والميم، وفتحهما الباقون، وعن الأعمش ضم الثاء وإسكان الميم، وقد مضى الكلام فيه في «الأنعام»، ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ ﴿مَا﴾ في موضع خفض على العطف على ﴿مِنْ ثَمَرِهِ﴾ أي: وما عملته أيديهم، وقرأ الكوفيون: «وما عملت» بغير هاء^(٢)، الباقون ﴿عَمِلَتْهُ﴾ على الأصل من غير حذف، وحذف الصلة أيضا في الكلام كثير لطول الاسم، ويجوز أن تكون «ما» نافية

لا موضع لها فلا تحتاج إلى صلة ولا راجع، أي: ولم تعمله أيديهم من الزرع الذي أنبته الله لهم^(١)، وهذا قول ابن عباس والضحاك ومقاتل، وقال غيرهم: المعنى: ومن الذي عملته أيديهم، أي: من الثمار، ومن أصناف الخلاوات والأطعمة، وما اتخذوا من الحبوب بعلاج كالخبز والدهن المستخرج من السمسم والزيتون، وقيل: يرجع ذلك إلى ما يغرسه الناس، روي معناه عن ابن عباس أيضا^(٢)، «أَفَلَا يَشْكُرُونَ» نعمه.

قوله تعالى: «سَبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا» نزه نفسه سبحانه عن قول الكفار؛ إذ عبدوا غيره مع ما أروهم من نعمه وآثار قدرته، وفيه تقدير الأمر؛ أي: سبحوه ونزهوه عما لا يليق به، وقيل: فيه معنى التعجب؛ أي: عجباً لهؤلاء في كفرهم مع ما يشاهدونه من هذه الآيات؛ ومن تعجب من شيء قال: سبحان الله! والأزواج: الأنواع والأصناف؛ فكل زوج صنف؛ لأنه مختلف في الألوان والطعوم والأشكال والصغر والكبر، فاختلافها هو ازدواجها، وقال قتادة: يعني الذكر والأنثى، «مِمَّا تَبَتَّ الْأَرْضُ» يعني من النبات؛ لأنه أصناف، «وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ» يعني وخلق منهم أولادا أزواجا ذكورا وإناثا، «وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ» أي: من أصناف خلقه في البر والبحر والسماء والأرض، ثم يجوز أن يكون ما يخلقه لا يعلمه البشر وتعلمه الملائكة، ويجوز ألا يعلمه مخلوق، ووجه الاستدلال في هذه الآية أنه إذا انفرد بالخلق فلا ينبغي أن يشرك به.

﴿وَأَيُّ لَهِمُّ اللَّيْلِ نَسَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: «وَأَيُّ لَهِمُّ اللَّيْلِ نَسَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ» أي: وعلامة دالة على توحيد الله وقدرته ووجوب إلهيته، والسلك: الكشط والزرع؛ يقال: سلخه الله من دينه، ثم تستعمل بمعنى الإخراج، وقد جعل ذهاب الضوء ومجيء الظلمة كالسلك من الشيء وظهور المسلوخ فهي استعارة، و«مُظْلِمُونَ» داخلون في الظلام؛ يقال: أظلمنا أي: دخلنا في ظلام الليل، وأظهرنا: دخلنا في وقت الظهر، وكذلك أصبحنا وأضحينا وأمسينا، وقيل: «مِنْهُ» بمعنى عنه، والمعنى نسلخ عنه ضياء النهار، «فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ» أي: في ظلمة؛ لأن ضوء النهار يتداخل في الهواء فيضيء فإذا خرج منه أظلم.

قوله تعالى: «وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا» يجوز أن يكون تقديره وآية لهم الشمس، ويجوز أن يكون «الشَّمْسُ» مرفوعاً بإضمار فعل يفسره الثاني، ويجوز أن يكون مرفوعاً بالابتداء «تَجْرِي» في موضع الخبر أي: جارية، وفي صحيح مسلم عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله عز وجل: «وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا» قال: «مستقرها تحت العرش^(٣)»، وفيه عن أبي ذر أن النبي ﷺ قال يوماً: «أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟» قالوا الله ورسوله أعلم، قال: «إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي، ارجعي من

(١) انظر: الطبري (٢٤ / ٦) في تفسيره .

(٢) انظر: النكت والعيون (٣ / ٤٤٣) للماوردي .

(٣) صحيح : مسلم (١٥٩ / ٢٥١) في الإيمان، وانظر التخريج التالي . .

حيث جثت فترجع فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتطهر ساجدة ولا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي ارجعي من حيث جثت فترجع، فتصبح طالعة من مطلعها ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئا حتى تنتهي إلى مستقرها ذاك تحت العرش فيقال لها ارتفعي، أصبحي طالعة من مغربك فتصبح طالعة من مغربها» فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون متى ذلكم ذاك حين «لا ينفع إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا»^(١)، ولفظ البخاري عن أبي ذر قال: قال النبي ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس: «تدري أين تذهب؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها يقال لها: ارجعي من حيث جثت فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾»^(٢)، ولفظ الترمذي عن أبي ذر قال: دخلت المسجد حين غابت الشمس والنبي ﷺ جالس، فقال النبي ﷺ: «يا أبا ذر أتدري أين تذهب هذه» قال قلت: الله ورسوله أعلم؛ قال: «فإنها تذهب فتستأذن في السجود فيؤذن لها وكأنها قد قيل لها اطلمي من حيث جثت فتطلع من مغربها» قال: ثم قرأ: «ذلك مستقر لها» قال وذلك قراءة عبدالله، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح^(٣)، وقال عكرمة: إن الشمس إذا غربت دخلت محرابا تحت العرش تسبح الله حتى تصبح، فإذا أصبحت استعفت ربها من الخروج فيقول لها الرب: ولم ذاك؟ قالت: إني إذا خرجت عبت من دونك، فيقول الرب تبارك وتعالى: أخرجني فليس عليك من ذاك شيء، سأبعث إليهم جهنم مع سبعين ألف ملك يقودونها حتى يدخلوهم فيها.

وقال الكلبي وغيره: المعنى: تجري إلى أبعد منازلها في الغروب، ثم ترجع إلى أدنى منازلها؛ فمستقرها بلوغها الموضع الذي لا تتجاوزه بل ترجع منه؛ كالإنسان يقطع مسافة حتى يبلغ أقصى مقصوده فيقضي وطره، ثم يرجع إلى منزل الأول الذي ابتداء منه سفره، وعلى تبليغ الشمس أقصى منازلها، وهو مستقرها إذا طلعت الهنعة، وذلك اليوم أطول الأيام في السنة، وتلك الليلة أقصر الليالي، فالنهار خمس عشرة ساعة والليل تسع ساعات، ثم يأخذ في النقصان وترجع الشمس، فإذا طلعت الثريا استوى الليل والنهار، وكل واحد ثلثا عشرة ساعة، ثم تبلغ أدنى منازلها وتطلع النعائم، وذلك اليوم أقصر الأيام، والليل خمس عشرة ساعة، حتى إذا طلع فرس الدلو المؤخر استوى الليل والنهار، فيأخذ الليل من النهار كل يوم عشر ثلث ساعة، وكل عشرة أيام ثلث ساعة، وكل شهر ساعة تامة، حتى يستويا ويأخذ الليل حتى يبلغ خمس عشرة ساعة، ويأخذ النهار من الليل كذلك، وقال الحسن: إن للشمس في السنة ثلاثمائة وستين مطلعاً، تنزل في كل يوم مطلعاً، ثم لا تنزله إلى الحول؛ فهي تجري في تلك المنازل وهي مستقرها^(٤)، وهو معنى الذي قبله سواء^(٥).

(٢) صحيح: مسلم (١٥٩/٢٥٠، ٢٥٠ مكرر، في الإيمان .

(٢) صحيح: البخاري (٤٨٢٠) في التفسير

(٣) صحيح: الترمذي (٣٢٢٧) في التفسير .

(٤، ٥) مرسلان: والحديث السابق يضعفهما وإن صحا إسناداً .

وقال ابن عباس: إنها إذا غربت وانتهت إلى الموضع الذي لا تتجاوزه استقرت تحت العرش إلى أن تطلع (١).

قلت: ما قاله ابن عباس يجمع الأقوال فتأمله، وقيل: إلى انتهاء أمدها عند انقضاء الدنيا، وقرأ ابن مسعود وابن عباس: «والشمس تجري لا مستقر لها» أي: إنها تجري في الليل والنهار لا وقوف لها ولا قرار، إلى أن يكورها الله يوم القيامة، وقد احتج من خالف المصحف فقال: أنا أقرأ بقراءة ابن مسعود وابن عباس، قال أبو بكر الأنباري: وهذا باطل مردود على من نقله؛ لأن أبا عمرو روى عن مجاهد عن ابن عباس وابن كثير روى عن مجاهد عن ابن عباس: «وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا» (٢)، فهذان السندان عن ابن عباس اللذان يشهد بصحتها الإجماع - ييطان ما روي بالسند الضعيف مما يخالف مذهب الجماعة، وما اتفقت عليه الأمة.

قلت: والأحاديث الثابتة التي ذكرناها ترد قوله، فما أجرأه على كتاب الله، قاتله الله، وقوله «لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا» أي: إلى مستقرها، والمستقر موضع القرار، «ذَلِكَ تَقْدِيرٌ» أي: الذي ذكر من أمر الليل والنهار والشمس تقدير «العزیز العليم».

﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: «وَالْقَمَرَ» يكون تقديره وآية لهم القمر، ويجوز أن يكون «والقمر» مرفوعا بالابتداء، وقرأ الكوفيون: «وَالْقَمَرَ» بالنصب على إضمار فعل وهو اختيار أبي عبيد، قال: لأن قبله فعلا وبعلبه فعلا؛ قبله «نَسْلَخُ» وبعده «قَدَرْنَاهُ»، النحاس: وأهل العربية جميعا فيما علمت على خلاف ما قال منهم الفراء قال: الرفع أعجب إلي، وإنما كان الرفع عندهم أولى؛ لأنه معطوف على ما قبله ومعناه: وآية لهم القمر، وقوله: إن قبله «نسلخ» فقبله ما هو أقرب منه وهو «تَجْرِي» وقبله «وَالشَّمْسُ» بالرفع، والذي ذكره بعده وهو «قَدَرْنَاهُ» قد عمل في الهاء، قال أبو حاتم: الرفع أولى؛ لأنك شغلت الفعل عنه بالضمير فرفعته بالابتداء، ويقال: القمر ليس هو المنازل فكيف قال: «قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ»؟ ففي هذا جوابان: أحدهما قدرناه إذا منازل؛ مثل: «وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ» [يوسف: ٨٢] والتقدير الآخر: قدرنا له منازل ثم حذف اللام، وكان حذفها حسنا لتعدي الفعل إلى مفعولين مثل «وَأَخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا» [الاعراف: ١٥٥]، والمنازل ثمانية وعشرون منزلا، ينزل القمر كل ليلة منها بمنزل؛ وهي: الشرطان، البطين، الثريا، الدبران، الهقعة، الهنعة، الذراع، النثرة، الطرف، الجبهة، الخراتان، الصرفة، العواء، السماك، الغفر، الزبانيان، الإكليل، القلب، الشولة، النعائم، البلدة، سعد الذابح، سعد بلع، سعد السعود، سعد الأخبية، الفرغ المقدم، الفرغ المؤجر، بطن الحوت، فإذا صار القمر في آخرها عاد إلى أولها، فيقطع الفلك في ثمان وعشرين ليلة، ثم يستمر ثم يطلع هلالا، فيعود في قطع الفلك على المنازل، وهي منقسمة على البروج لكل برج منزلان

(١) يؤيد ذلك الحديث المرفوع والذي سبق تخريجه .

(٢) وهذا قول صحيح انظره عند الآية (١٦).

وثالث، فللحمل السرطان والبطين وثالث الثريا، وللثور ثلثا الثريا والدبران وثلثا الهقمة، ثم كذلك إلى سائرهما، وقد مضى في «الحجر»^(١) تسمية البروج والحمد لله، وقيل: إن الله تعالى خلق الشمس والقمر من نار ثم كسيا النور عند الطلوع، فأما نور الشمس فمن نور العرش، وأما نور القمر فمن نور الكرسي، فذلك أصل الخلق وهذه الكسوة، فأما الشمس فتركت كسوتها على حالها لتشعشع وتشرق، وأما القمر فأمر الروح الأمين جناحه على وجهه فمحا ضوءه بسُلطان الجناح، وذلك أنه روح والروح سلطانه غالب على الأشياء، فبقي ذلك المحو على ما يراه الخلق، ثم جعل في غلاف من ماء، ثم جعل له مجرى، فكل ليلة يبدو للخلق من ذلك الغلاف قمرا بمقدار ما يقمر لهم حتى ينتهي بدؤه، ويراه الخلق بكماله واستدارته، ثم لا يزال يعود إلى الغلاف كل ليلة شيء منه فينقص من الرؤية والإقمار بمقدار ما زاد في البداء، ويتبدئ في النقصان من الناحية التي لا تراه الشمس وهي ناحية الغروب حتى يعود كالعرجون القديم، وهو العذق المتقوس ليبسه ودقته، وإنما قيل: القمر؛ لأنه يقمر، أي: يبيض الجو ببياضه إلى أن يستمر.

الثانية: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ قال الزجاج: هو عود العذق الذي عليه الشماريخ، وهو فعلون من الانعراج وهو الانعطف، أي: سار في منازل، فإذا كان في آخرها دق واستقوس وضاق حتى صار كالعرجون، وعلى هذا فالنون زائدة، وقال قتادة: هو العذق اليابس المنحني من النخلة. ثعلب «كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ» قال: «العرجون» الذي يبقى من الكباسة في النخلة إذا قطعت، و«الْقَدِيمِ» البالي. الخليل: في باب الرباعي: «العرجون» أصل العذق وهو أصفر عريض يشبه به الهلال إذا انحني، الجوهرى «العرجون» أصل العذق الذي يعوج وتقطع منه الشماريخ فيبقى على النخل يابساً؛ وعرجنه: ضربه بالعرجون، فالنون على قول هؤلاء أصلية؛ ومنه شعر أهشى بنى قيس:

شرق المسك والعبير بها فهي صفراء كعرجون القمر

فالعرجون إذا عتق ويبس وتقوس شبه القمر في دقته وصفرت به، ويقال له أيضا: الإهان والكباسة والقنو، وأهل مصر يسمونه الإسباطة، وقرئ: «العرجون» بوزن الفرجون وهما لغتان كالبزبون والبزبون؛ ذكره الزمخشري^(٢) وقال: هو عود العذق ما بين شماريخه إلى منبته من النخلة، واعلم أن السنة منقسمة على أربعة فصول، لكل فصل سبعة منازل: فأولها الربيع، وأوله خمسة عشر يوماً من آذار، وعدد أيامه اثنان وتسعون يوماً؛ تقطع فيه الشمس ثلاثة بروج: الحمل، والثور، والجوزاء، وسبعة منازل: السرطان والبطين والثريا والدبران والهقمة والهنعة والذراع، ثم يدخل فصل الصيف في خمسة عشر يوماً من حزيران، وعدد أيامه اثنان وتسعون يوماً؛ تقطع الشمس فيه ثلاثة

(١) ولعله - رحمه الله - كان في غني عن هذا كله، خاصة أن هذا الأثر منقول من طريق ضعيف جداً، عن ابن عباس، فقد رواه الخطيب في النجوم، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ولا يصح إليه سند، وانظر: الدر المنثور (٤٩٥/٥) للسيوطي.

(٢) الكشاف (٣/ ٣٨٧) للزمخشري.

والبزون: ضرب من ضروب الحرير، وقيل: هو السندس.

بروج: السرطان، والأسد، والسنبلة، وسبعة منازل: وهي النثرة والطرف والجهة والخراتان والصرفة والعواء والسماك، ثم يدخل فصل الخريف في خمسة عشر يوما من أيلول، وعدد أيامه أحد وتسعون يوما، تقطع فيه الشمس ثلاثة بروج؛ وهي الميزان، والعقرب، والقوس، وسبعة منازل: الغفر والزبانان والإكليل والقلب والشولة والنعام والبلدة، ثم يدخل فصل الشتاء في خمسة عشر يوما من كانون الأول، وعدد أيامه تسعون يوما وربما كان أحدا وتسعين يوما، تقطع فيه الشمس ثلاثة بروج: وهي الجدي والدلو والحوت، وسبعة منازل: سعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الأخبية والفرغ المقدم، والفرغ المؤخر ووطن الحوت، وهذه قسمة السريانيين لشهورها: تشرين الأول، تشرين الثاني، كانون الأول، كانون الثاني، أشباط، آذار، نيسان، أيار، حزيران، تموز، آب، أيلول، وكلها أحد وثلاثون إلا تشرين الثاني ونيسان وحزيران وأيلول، فهي ثلاثون، وأشباط ثمانية وعشرون يوما وربع يوم، وإنما أردنا بهذا أن ننظر في قدرة الله تعالى فذلك قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ﴾ فإذا كانت الشمس في منزل أهل الهلال بالمنزل الذي بعده، وكان الفجر بمنزلتين من قبله، فإذا كانت الشمس بالثريا في خمسة وعشرين يوما من نيسان، كان الفجر بالشرطين، وأهل الهلال بالديبران، ثم يكون له في كل ليلة منزلة حتى يقطع في ثمان وعشرين ليلة ثمانيا وعشرين منزلة، وقد قطعت الشمس منزلتين فيقطعهما، ثم يطلع في المنزلة التي بعد منزلة الشمس فـ ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ .

قوله تعالى: ﴿الْقَدِيمِ﴾ قال الزمخشري: القديم المحول وإذا قدم دق وانحنى واصفر فشبّه القمر به من ثلاثة أوجه، وقيل: أقل عدة الموصوف بالقديم الحول، فلو أن رجلا قال: كل مملوك لي قديم فهو حر، أو كتب ذلك في وصيته عتق من مضى له حول أو أكثر.

قلت: قد مضى في «البقرة» ما يترتب على الأهله من الأحكام^(١) والحمد لله .

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ رفعت ﴿الشَّمْسُ﴾ بالابتداء، ولا يجوز أن تعمل ﴿لَا﴾ في معرفة، وقد تكلم العلماء في معنى هذه الآية، فقال بعضهم: معناها أن الشمس لا تدرك القمر فتبطل معناه، أي: لكل واحد منهما سلطان على حياله، فلا يدخل أحدهما على الآخر فيذهب سلطانه، إلى أن يبطل الله ما دبر من ذلك، فتطلع الشمس من مغربها على ما تقدم في آخر سورة «الانعام» بيانه^(٢)، وقيل: إذا طلعت الشمس لم يكن للقمر ضوء، وإذا طلع القمر لم يكن للشمس ضوء، روي معناه عن ابن عباس والضحاك^(٣)، وقال مجاهد: أي: لا يشبه ضوء أحدهما ضوء الآخر^(٤)، وقال قتادة: لكل حد وعلم لا يعدوه ولا يقصر دونه إذا جاء سلطان هذا^(٥) ذهب سلطان

(١) عند الآية (١٨٩) . (٢) عند الآية (١٥٨) .

(٣) كذا من الضحاك عند الطبري بسند منقطع عن شيخه الحسين كما في تفسيره (٩/٢٣)، ولم يذكره عن ابن عباس - رضي الله عنهما .

(٤) صحيح: من طريق ابن أبي نجیح كما عند الطبري (٩/٢٣) في تفسيره، وعنه ابن كثير (٣٧٨/٦) في تفسيره .

(٥) صحيح إليه: الطبري (٩/٢٣) في تفسيره، وابن أبي حاتم (١٢/٦٥) في تفسيره .

هذا، وقال الحسن: إنهما لا يجتمعان في السماء ليلة الهلال خاصة^(١)، أي: لا تبقى الشمس حتى يطلع القمر، ولكن إذا غربت الشمس طلع القمر. يحيى بن سلام: لا تدرك الشمس القمر ليلة البدر خاصة لأنه يبادر بالمغيب قبل طلوعها، وقيل: معناه إذا اجتمعا في السماء كان أحدهما بين يدي الآخر في منازل لا يشتركان فيها؛ قال ابن عباس^(٢) أيضا، وقيل: القمر في السماء الدنيا والشمس في السماء الرابعة فهي لا تدركه؛ ذكره النحاس والمهدوي، قال النحاس: وأحسن ما قيل في معناها وأبينه مما لا يدفع: أن سير القمر سير سريع والشمس لا تدركه في السير ذكره المهدوي أيضا، فأما قوله سبحانه: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٩] فذلك حين حبس الشمس عن الطلوع على ما تقدم بيانه في آخر «الأنعام»^(٣) ويأتي في سورة «القيامة» أيضا، وجمعهما علامة لانقضاء الدنيا وقيام الساعة، و«كُلٌّ» يعني من الشمس والقمر والنجوم: ﴿فِي فَلَكَ يَسْحُونُ﴾ أي: يجرون^(٤)، وقيل: يدورون^(٥)، ولم يقل تسبح؛ لأنه وصفها بفعل من يعقل، وقال الحسن: الشمس والقمر والنجوم في فلك بين السماء والأرض غير ملصقة؛ ولو كانت ملصقة ما جرت ذكره الثعلبي والماوردي، واستدل بعضهم بقوله تعالى: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ على أن النهار مخلوق قبل الليل، وأن الليل لم يسبقه بخلق، وقيل: كل واحد منهما يجيء وقته ولا يسبق صاحبه إلى أن يجمع بين الشمس والقمر يوم القيامة؛ كما قال: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ وإنما هذا التعاقب الآن لتم مصالح العباد، ﴿وَلَتَعْلَمُوا عِنْدَ السَّيْنِ وَالْحِسَابِ﴾ [يونس: ٥] ويكون الليل للإجمام والاستراحة، والنهار للتصرف؛ كما قال تعالى ﴿وَمِنْ رَحْمَتِي جَعَلْتُ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتُبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣] وقال ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سباتاً﴾ أي: راحة لأبدانكم من عمل النهار، فقوله: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أي: غالب النهار؛ يقال: سبق فلان فلانا أي: غلبه، وذكر المبرد قال: سمعت عمارة يقرأ: «ولا الليل سابق النهار» فقلت: ما هذا؟ قال: أردت سابق النهار فحذفت التنوين؛ لأنه أخف، قال النحاس: يجوز أن يكون «النهار» منصوبا بغير تنوين ويكون التنوين حذف لالتقاء الساكنين.

﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴿٦٦﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقذُونَ ﴿٦٨﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ﴾ يحتمل ثلاثة معان: أحدها: عبرة لهم؛ لأن في الآيات اعتبارا، الثاني نعمة عليهم؛ لأن في الآيات إنعاما. الثالث: إنذار لهم؛ لأن في الآيات إنذارا، ﴿أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾^(٦٦) في الفلك المشحون؛ من أشكل ما في السورة؛ لأنهم هم المحمولون، فقيل: المعنى وآية لأهل مكة أنا

(١) ذكره البغوي (١٣ / ٧) في تفسيره .

(٢) ضعيف: الطبري (٩ / ٢٣) في تفسيره من طريق العوفيين .

(٣) عند الآية (١٥٨) .

(٤) هذا تفسير مجاهد بسند صحيح، وتفسير ابن عباس بسند منقطع، عن علي بن أبي طلحة .

(٥) (يدورون) هذا تفسير عكرمة كما عند الماوردي (٤ / ٤٣٥) في النكت والعيون .

(٦) قراءة متواترة: تقريب النهر (ص ١١٦) .

حملنا ذرية القرون الماضية ﴿فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ فالضميران مختلفان؛ ذكره المهدي، وحكاه النحاس عن علي بن سليمان أنه سمعه يقوله، وقيل: الضميران جميعا لأهل مكة على أن يكون ذرياتهم أولادهم وضعفاءهم؛ فالفلك على القول الأول سفينة نوح، وعلى الثاني يكون اسما للجنس؛ خبر جل وعز بلطفه وامتنانه أنه خلق السفن يحمل فيها من يصعب عليه المشي والركوب من الذمة والضعفاء، فيكون الضميران على هذا متفقين، وقيل: الذرية الآباء والأجداد، حملهم الله تعالى في سفينة نوح عليه السلام؛ فالآباء ذرية والأبناء ذرية؛ بدليل هذه الآية؛ قاله أبو عثمان، وسمي الآباء ذرية؛ لأن منهم ذرا الأبناء، وقول رابع: أن الذرية النطف حملها الله تعالى في بطون النساء تشبيها بالفلك المشحون؛ قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ ذكره الماوردي^(١)، وقد مضى في «البقرة» اشتقاق الذرية والكلام فيها مستوفى^(٢)، و﴿الْمَشْحُونِ﴾ المملوء الموقر، و﴿الْفَلَكِ﴾ يكون واحدا وجمعا، وقد تقدم في «يونس»^(٣) القول فيه.

قوله تعالى: ﴿وَوَخَّلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ والأصل يركبونه فحذفت الهاء لطول الاسم وأنه رأس آية، وفي معناه ثلاثة أقوال: مذهب مجاهد وقادة وجماعة من أهل التفسير، وروي عن ابن عباس أن معنى ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ للإبل^(٤)، خلقها لهم للركوب في البر مثل السفن المركوبة في البحر^(٥)؛ والعرب تشبه الإبل بالسفن، قال طرفة:

كأن حدوجَ المالكيةِ عُدوةٌ خَلَايا سَفِينٍ بِالنَّوْاصِفِ مِنْ دَدِ

جمع خلية وهي السفينة العظيمة، والقول الثاني أنه للإبل والدواب وكل ما يركب، والقول الثالث: أنه للسفن؛ النحاس: وهو أصحها لأنه متصل الإسناد عن ابن عباس^(٦)، ﴿وَوَخَّلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ قال: خلق لهم سفنا أمثالها يركبون فيها، وقال أبو مالك: إنها السفن الصغار خلقها مثل السفن الكبار؛ وروي عن ابن عباس والحسن^(٧)، وقال الضحاك وغيره: هي السفن المتخذة بعد سفينة نوح^(٨). قال الماوردي^(٩): ويجيء على مقتضى تأويل علي رضي الله عنه في أن الذرية في الفلك المشحون هي النطف في بطون النساء: قول خامس في قوله: ﴿وَوَخَّلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ أن يكون تأويله النساء خلقن لركوب الأزواج لكن لم أره محكيا.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ أي في البحر فترجع الكناية إلى أصحاب الذرية، أو إلى الجميع،

(١) كنا في تفسير الماوردي (٤/ ٤٣٥، ٤٣٦).

(٢) عند الآية (١٢٢) من سورة يونس.

قلت: والقول بأنها سفينة نوح قول قتادة والضحاك كما عند الطبري (٢٩/ ١١) في تفسيره.

(٤) ضعيف إلى ابن عباس، وصحيح إلى مجاهد وقادة: الطبري (٢٣/ ١٢) و (٢٣/ ١٣) في تفسيره، وقد رواه من طريق العوفيين، عن ابن عباس.

(٥) صحيح إلى ابن عباس: الطبري صحيحًا من طريق سعيد بن جبيرة، كما في تفسير (٢٣/ ١٢).

(٦) وقد صححناه عنده بحمد الله.

(٧) هذا قول أبي مالك والسدي والحسن، وقول ابن عباس هو السابق ذكره، كما عند الطبري (٢٣/ ١٢) في تفسيره.

(٨) منقطع بين الطبري وشيخه: التفسير (٢٣/ ١٢).

(٩) النكت والعيون (٣/ ٤٣٦).

وهذا يدل على صحة قول ابن عباس ومن قال: إن المراد ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ السفن لا الإبل، ﴿فَلَا صَرِيحٌ لَهُمْ﴾ أي لا مغيث لهم، واه سعيد عن قتادة (١)، وروى شيبان عنه: فلا منعة لهم ومعناها مستقاربان، و﴿صَرِيحٌ﴾ بمعنى مصرخ فاعيل بمعنى فاعل، ويجوز «فلا صريحٌ لهم»؛ لأن بعده ما لا يجوز فيه إلا الرفع؛ لأنه معرفة وهو ﴿وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ﴾ والنحويون يختارون: لا رجل في الدار ولا زيد، ومعنى ﴿نُقَدُونَ﴾ يخلصون من الغرق، وقيل: من العذاب، ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا﴾ قال الكسائي: هو نصب على الاستثناء، وقال الزجاج: نصب مفعول من أجله؛ أي للرحمة ﴿وَمَتَاعًا﴾ معطوف عليه، ﴿إِلَى حِينٍ﴾ إلى الموت؛ قاله قتادة (٢). يحيى بن سلام: إلى القيامة أي إلا أن نرحمهم ونمتعهم إلى آجالهم، وأن الله عجل عذاب الأمم السالفة، وأخر عذاب أمة محمد ﷺ وإن كذبوه إلى الموت والقيامة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْظِعُوا مِنْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَطَعَمَهُمْ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٢﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهَرُّ بَيْحِسُونَ ﴿١٣﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ قال قتادة: يعني: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ أي من الوقائع فيمن كان قبلكم من الأمم، ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من الآخرة. ابن عباس وابن جبير ومجاهد: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ ما مضى من الذنوب، ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ ما يأتي من الذنوب (٣). الحسن: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ ما مضى من أجلكم ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ ما بقي منه (٤)، وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ من الدنيا، ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من عذاب الآخرة؛ قاله سفيان، وحكى عكس هذا القول الشعبي عن ابن عباس، قال: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ من أمر الآخرة وما عملوا لها (٥)، ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من أمر الدنيا فاحذروها ولا تغتروا بها، وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ ما ظهر لكم: ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ ما خفي عنكم، والجواب محذوف، والتقدير: إذا قيل لهم ذلك اعرضوا؛ دليله قوله بعد: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ فاكتفى بهذا عن ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا رَزَقَكُمْ اللَّهُ﴾ أي تصدقوا على الفقراء. قال الحسن (٦): يعني

(١) (٢، ١) صحيحان إلى قتادة: الطبري (٢٣ / ٣).

(٣) ذكره الطبري (٢٣ / ١٤) في تفسيره عن مجاهد صحيحاً، وزاد السيوطي (٥ / ٤٩٨) في الدر عزوه لابن أبي حاتم وعبد ابن حميد، وذكره البغوي (٧ / ١٩) بنحوه، عن ابن عباس - رضي الله عنهما، وقول سعيد حكاه الشوكاني (٦ / ١٦٨) في فتح القدير.

(٤) لعله من طريق قتادة، وهو قول لمجاهد أيضاً، والله أعلم الطبري (٢٣ / ١٤) في تفسيره.

(٥) كذا نقله الشوكاني (٦ / ١٦٨) في فتح القدير.

(٦) الماوردي (٣ / ٤٤٦) في النكت والمعيون.

اليهود أمروا بإطعام الفقراء، وقيل: هم المشركون قال لهم فقراء أصحاب النبي ﷺ: أعطونا ما زعمتم من أموالكم أنها لله؛ وذلك قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦] فحرموهم وقالوا: لو شاء الله أطعمكم - استهزاء - فلا نطعمكم حتى ترجعوا إلى ديننا، قالوا: ﴿أَنْطَعِمُ﴾ أي أنرزق: ﴿مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ كان بلغهم من قول المسلمين: أن الرازق هو الله، فقالوا هزأ: أنرزق من لو يشاء الله أغناه، وعن ابن عباس: كان بمكة زنادقة، فإذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا: لا والله! أيفقره الله ونطعمه نحن، وكانوا يسمعون المؤمنين يعلقون أفعال الله تعالى بمشيئته فيقولون: لو شاء الله لأغنى فلانا؛ ولو شاء الله لأعز، ولو شاء الله لكان كذا، فأخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين، وبما كانوا يقولونه من تعليق الأمور بمشيئة الله تعالى^(١)، وقيل: قالوا هذا تعلقا بقول المؤمنين لهم: ﴿أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: فإذا كان الله رزقنا فهو قادر على أن يرزقكم فلم تلتمسون الرزق منا؟ وكان هذا الاحتجاج باطلا؛ لأن الله تعالى إذا ملك عبدا مالا ثم أوجب عليه فيه حقا فكانه انتزع ذلك القدر منه، فلا معنى للاعتراض، وقد صدقوا في قولهم: لو شاء الله أطعمهم ولكن كذبوا في الاحتجاج، ومثله قوله: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقوله: ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، ﴿إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ قيل: هو من قول الكفار للمؤمنين؛ أي: في سؤال المال وفي اتباعكم محمدا، قال معناه مقاتل وغيره، وقيل: هو من قول أصحاب النبي ﷺ لهم، وقيل من قول الله تعالى للكفار حين ردوا بهذا الجواب، وقيل: إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان يطعم مساكين المسلمين فلقيه أبو جهل فقال: يا أبا بكر أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء؟ قال: نعم، قال: فما ياله لم يطعمهم؟ قال: ابتلى قوما بالفقر، وقوما بالغنى، وأمر الفقراء بالصبر، وأمر الأغنياء بالإعطاء، فقال: والله يا أبا بكر ما أنت إلا في ضلال أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء وهو لا يطعمهم ثم تطعمهم أنت؟ فنزلت هذه الآية، ونزل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾﴾ الآيات، وقيل: نزلت الآية في قوم من الزنادقة، وقد كان فيهم أقوام يتزندقون فلا يؤمنون بالصانع واستهزؤوا بالمسلمين بهذا القول؛ ذكره القشيري والماوردي^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ لما قيل لهم: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ قالوا: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ وكان هذا استهزاء منهم أيضا، أي لا تحقيق لهذا الوعد، قال الله تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظرون ﴿إِلَّا صِحَّةً وَأَحَدَةً﴾ وهي نفخة إسرافيل ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي يختصمون في أمور دنياهم فيموتون في مكانهم؛ وهذه نفخة الصعق، وفي ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ خمس قراءات: قرأ أبو عمرو وابن كثير: ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ بفتح الباء والخاء وتشديد الصاد^(٣)، وكذا روى ورش عن نافع، فأما أصحاب القراءات وأصحاب نافع سوى ورش فرووا عنه «يخصمون» بإسكان الخاء وتشديد الصاد^(٤)

= قلت: السورة مكية، فلعل هذا السبب غير صحيح إلا أن تكون الآية نزلت مرتين، لكن صحة مثل هذا مستبعدة لكونه مرسلًا، والحسن صدوق يدلس وقد أرسله.

(١) ضعيف: ورواه الماوردي (٣/ ٤٤٧) غير مستند، ورواه عبد الرزاق (٤٠٤/ ٢٤) في التفسير عن الكلبي.

(٢) ضعيف للإرسال: الماوردي (٣/ ٤٤٧) في تفسيره.

(٣) (٤) قراءتان متواترتان: تقرب النشر (ص ٤١).

على الجمع بين ساكنين، وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمة: ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ بإسكان الخاء وتخفيف الصاد (١) من خصمه، وقرأ عاصم والكسائي «وهم يخصمون» بكسر الخاء وتشديد الصاد، ومعناه: يخصم بعضهم بعضاً، وقيل: تأخذهم وهم عند أنفسهم يختصمون في الحجة أنهم لا يعثون، وقد روى ابن جبير عن أبي بكر عن عاصم، وحماد عن عاصم كسر الياء والخاء والتشديد، قال النحاس: القراءة الأولى أئيينها، والأصل فيها يختصمون فأدغمت التاء في الصاد فنقلت حركتها إلى الخاء، وفي حرف أبي: «وهم يختصمون»، وإسكان الخاء لا يجوز؛ لأنه جمع بين ساكنين وليس أحدهما حرف مد ولين، وقيل: أسكنوا الخاء على أصلها، والمعنى يخصم بعضهم بعضاً فحذف المضاف، وجاز أن يكون المعنى يخصمون مجادلهم عند أنفسهم فحذف المفعول. قال الثعلبي: وهي قراءة أبي بن كعب، قال النحاس: فأما ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ فالأصل فيه أيضاً «يخصمون»، فأدغمت التاء في الصاد ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين، وزعم الفراء أن هذه القراءة أجود وأكثر؛ فتسوك ما هو أولى من إلقاء حركة التاء على الخاء واجتلب لها حركة أخرى وجمع بين ياء وكسرة، وزعم أنه أجود وأكثر، وكيف يكون أكثر وبالفصح قراءة الخلق من أهل مكة وأهل البصرة وأهل المدينة! وما روي عن عاصم من كسر الياء والخاء فللاتسباع، وقد مضى هذا في «البقرة» في «يخطف أبنصارهم» [البقرة: ٢٠] وفي «يونس» ﴿يَهْدِي﴾ [يونس: ٣٥]، وقال عكرمة في قوله جل وعز: ﴿إِلَّا صِيحَّةً وَاحِدَةً﴾ قال: هي النسخة الأولى في الصور، وقال أبو هريرة: ينفخ في الصور والناس في أسواقهم: فمن حالب لقمحة (٢)، ومن ذارع ثوبا، ومن مار في حاجة (٣)، وروى نعيم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تقوم الساعة والرجلان قد نشرتا ثوبهما يتبايعانه فلا يطويانه حتى تقوم الساعة، والرجل يليب (٤) حوضه ليسقي ماشيته فما يسقيها حتى تقوم الساعة، والرجل يخفض ميزانه فما يرفعه حتى تقوم الساعة، والرجل يرفع أكلته إلى فيه فما يتلعهما حتى تقوم الساعة» (٥)، وفي حديث عبد الله بن عمرو: «وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله قال فيصعق ويصعق الناس» الحديث (٦)، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أي لا يستطيع بعضهم أن يوصي بعضاً لما في يده من حق، وقيل: لا يستطيع أن يوصي بعضهم بعضاً بالتوبة والإقلاع؛ بل يموتون في أسواقهم ومواضعهم، ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ إذا ماتوا، وقيل: إن معنى ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ لا يرجعون إليهم قبولا، وقال قتادة: ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي إلى منازلهم؛ لأنهم قد أعجلوا عن ذلك (٧).

(١) قراءة متواترة: تقرب النشر (ص ٤١).

(٢) اللقمحة: هي بالكسر والفتح: الناقة قريبة العهد بالتاج والولادة، إذا كانت غزيرة اللبن - النهاية (٤ / ٢٦٢) لابن الأثير - رحمه الله.

(٣) حسن: ومثله لا يقال عن توقيف، ورواه محمد بن زياد الجمحي، عن أبي هريرة، وهو ثقة في روايته، ورواه عبد الرزاق (٢٤٠٥) في التفسير، وزاد السيوطي (٥ / ٤٩٨) في الدر عزوه إلى ابن مردويه، وعبد البرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد.

(٤) يليب حوضه: يلبقه ويطينه اللسان «ليب».

(٥) متفق عليه: قطعة من حديث رواه البخاري (٦٥٠٦) في الرقاق، ومسلم (٢٩٥٤) في الفتن.

(٦) صحيح: قطعة من حديث مسلم (٢٩٤٠ / ١١٦، ١٧) في الفتن.

(٧) صحيح: الطبري (٢٣ / ١٦) في تفسيره.

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ ٢٨ قَالُوا يَا نَبِيَّانَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ٢٩ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ٣٠ فَالْيَوْمَ لَا تظَلُّمُ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَلَا تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٣١ ﴿

قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ هذه النفخة الثانية للنشأة، وقد بينا في سورة «النمل» أنهما نفختان لا ثلاث^(١)، وهذه الآية دالة على ذلك، وروى المبارك بن فضالة عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «بين النفختين أربعون سنة: الأولى يميت الله بها كل حي، والأخرى يحيي الله بها كل ميت»^(٢)، وقال قتادة: الصور جمع صورة^(٣)؛ أي نفخ في الصور والأرواح، وصورة وصور مثل سورة البناء وسور؛ قال العجاج:

رُبَّ ذِي سُرَادِقٍ مَّحْجُورٍ سَرَتْ إِلَيْهِ فِي أَعَالِي السُّورِ

وقد روي عن أبي هريرة أنه قرأ ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾، النحاس: والصحيح أن ﴿ الصُّورِ ﴾ بإسكان الواو: القرن؛ جاء بذلك التوقيف عن رسول الله، وذلك معروف في كلام العرب، أنشد أهل اللغة: نحن نطحنهم غداة الغورين بالضابحات في غبار الثَّقَعِينِ نَطْحًا شَدِيدًا لَا كَنَطْحِ الصُّورِيِّينِ

وقد مضى هذا في «الأنعام» مستوفى^(٤)، ﴿ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ ﴾ أي القبور، وقرئ بالفاء: «من الأجداف» ذكره الزمخشري، يقال: جدت وجدف، واللغة الفصيحة الجدث (بالثاء) والجمع أجدث وأجدات؛ قال المتنخل الهذلي:

عَرَفْتُ بِأَجْدُثٍ فَنَعَافَ عَرَقٍ عَلَامَاتٍ كَتَحْبِيرِ النَّمَاطِ

واجتثت: أي اتخذ جدثا، ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ أي يخرجون؛ قاله ابن عباس وكتادة ومنه قول امرئ القيس:

فَسَلِّي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسَلِي

ومنه قيل للولد: نسل؛ لأنه يخرج من بطن أمه، وقيل: يسرعون، والنسلان والعسلان: الإسراع في السير، ومنه مشية الذئب؛ قال:

عَسَلَانَ الذِّئْبِ أَمْسَى قَارِبًا بَرَدَ اللَّيْلُ عَلَيْهِ فَنَسَلَ

يقال: عسل الذئب ونسل، يعسل وينسل، من باب ضرب يضرب، ويقال: ينسل بالضم أيضا، وهو الإسراع في المشي؛ فالمعنى يخرجون مسرعين، وفي التنزيل ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال: ﴿يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرُونَ﴾ [القمر: ٧]، وفي ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ ﴿يَوْمَ﴾

(١) عند الآية (٨٧).

(٢) ضعيف: للإرسال، وفيه المبارك بن فضالة مدلس، ورواه، وأبو عمر والداني (٦/ ١٢٨٥) في السنن الواردة في الصفة، وانظر: الفتح (١١/ ٣٧٠) لابن حجر - رحمه الله.

(٣) هذا غريب من قول قتادة ولا يصح أبداً.

(٤) عند الآية (٧٣).

يُخْرَجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِصُونَ» [المعارج: ٤٣] أي يسرعون، وفي الخبر: شكونا إلى النبي ﷺ الضعف فقال: «عليكم بالنسل»^(١) أي بالإسراع في المشي فإنه ينشط.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾ قال ابن الأنباري: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ وقف حسن ثم تبدت «من بعثنا» وروي عن بعض القراء «يا ويلنا من بعثنا» بكسر «من» والشاء من البعث، روي ذلك عن علي رضي الله عنه؛ فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على قوله: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ حتى يقول «من مرقدنا»، وفي قراءة أبي بن كعب «من هبنا» بالوصل «من مرقدنا» فهذا دليل على صحة مذهب العامة، قال المهدي: قرأ ابن أبي ليلي ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾ بزيادة تاء وهو تأنيث الوصل، ومثله: ﴿يَا وَيْلَتَى أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ [هود: ٧٢]، وقرأ علي رضي الله عنه «يا ويلنا من بعثنا» ف «من» متعلقة بالويل أو حال من «ويلنا» فتعلق بمحذوف؛ كأنه قال: يا ويلنا كائنا من بعثنا؛ وكما يجوز أن يكون خيرا عنه كذلك يجوز أن يكون حالا منه، و«من» من قوله ﴿مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ متعلقة بنفس البعث، ثم قيل: كيف قالوا هذا وهم من المعذبين في قبورهم؟ فالجواب: أن أبي بن كعب قال: ينامون نومة^(٢)، وفي رواية فيقولون: يا ويلنا من أهنا من مرقدنا، قال أبو بكر الأنباري: لا يحمل هذا الحديث على أن «أهنا» من لفظ القرآن كما قال من طعن في القرآن، ولكنه تفسير «بعثنا» أو معبر عن بعض معانيه، قال أبو بكر: وكذا حفظه: «من هبنا» بغير ألف في أهنا مع تسكين نون «من»، والصواب فيه على طريق اللغة «من أهنا» بفتح النون على أن فتحة همزة أهب أقيت على نون «من» وأسقطت الهمزة؛ كما قالت العرب: من أخبرك؟ من أعلمك؟ وهم يريدون من أخبرك، ويقال: أهبيت النائم فهب النائم، أنشدنا أحمد بن يحيى النحوي:

وَعَادِلَةٌ هَمَّتْ بِلَيْلٍ تَلُوْمُنِي وَلَمْ يَعْتَمِرْنِي قَبْلَ ذَلِكَ عَدُولٌ

وقال أبو صالح: إذا نفع النسخة الأولى رفع العذاب عن أهل القبور وجمعوا هجمة إلى النسخة الثانية وبينهما أربعون سنة؛ فذلك قولهم: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾^(٣) وقاله ابن عباس وقتادة^(٤)، وقال أهل المعاني: إن الكفار إذا عاينوا جهنم وما فيها من أنواع العذاب صار ما عذبوا به في قبورهم إلى جنب عذابها كالنوم، قال مجاهد: فقال لهم المؤمنون^(٥) ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾، قال قتادة: فقال لهم من هدى الله: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾، وقال الفراء: فقالت لهم الملائكة: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾^(٦). النحاس: وهذه الأقوال متفقة؛ لأن الملائكة من المؤمنين ومن هدى الله عز وجل، وعلى هذا يتأول قول الله عز

(١) رجاله ثقات: الهيثمي (٥/ ٢٦٧) في المجمع وابن خزيمة (٤/ ١٤٠) في صحيحه، والحاكم (١/ ٦١٠) في المستدرک، وصححه ووافقه الذهبي، ولفظه (النسلاف).

قلت: والقراءات التالية كلها شاذة.

(٢) منقطع: انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٨٠)، وتفسير الطبري (٢٣/ ١٨)، وهو منقطع بن الحسن البصري وأبي - رضي الله عنه.

(٣) عزاه السيوطي (٥/ ٥٠٠) في الدر لابن أبي شيبة، وأبو المنذر، ورواه ابن أبي شيبة (٧/ ٢٠٤) (٣٥٢٦٤) بسند صحيح إليه كما في المصنف.

(٤) كذا عند البغوي (٧/ ٢١) في تفسيره، وعزاه السيوطي (٥/ ٥٠٠) في الدر لعبد بن حميد وعبد الرزاق.

(٥، ٦) صحيح إلهما: الطبري (٢٣/ ١٨، ١٩) في تفسيره.

وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧] وكذا الحديث: «المؤمن عند الله خير من كل ما خلق»^(١)، ويجوز أن تكون الملائكة وغيرهم من المؤمنين قالوا لهم ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾، وقيل: إن الكفار لما قال بعضهم لبعض: ﴿مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ صدقوا الرسل لما عاينوا ما أخبروهم به، ثم قالوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ فكذبنا به؛ أقروا حين لم ينفعهم الإقرار، وكان حفص يقف على ﴿مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ ثم يتبدئ فيقول: ﴿هَذَا﴾، قال أبو بكر بن الأنباري ﴿مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ وقف حسن؛ ثم يتبدئ ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ ويجوز أن تقف على مرقدنا هذا فتخضع هذا على الإتيان للمرقد، وتبتدئ ﴿مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ على معنى بعثكم ما وعد الرحمن؛ أي بعثكم وعد الرحمن، النحاس: التمام على ﴿مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ و«هذا» في موضع رفع بالابتداء وخبره «ما وعد الرحمن»، ويجوز أن يكون في موضع خفض على النعت لـ «مرقدنا» فيكون التمام ﴿مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا﴾، ﴿مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ في موضع رفع من ثلاث جهات، ذكر أبو إسحاق منها اثنتين قال: يكون بإضمار هذا، والجهة الثانية أن يكون بمعنى حق ما وعد الرحمن بعثكم، والجهة الثالثة: أن يكون بمعنى ما وعد الرحمن، ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيِّحَةً وَاحِدَةً﴾ يعني إن بعثهم وإحياءهم كان بصيحة واحدة وهي قول إسرافيل: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة والشعور المتمزقة! إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء، وهذا معنى قول الحق: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤٢]، وقال: ﴿مُهَيِّبِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [القدر: ٨] على ما يأتي، وفي قراءة ابن مسعود إن صح عنه: «إن كانت إلا زقية واحدة»^(٢) والزقية الصيحة؛ وقد تقدم هذا، ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ مبتدأ وخبره ﴿جَمِيعٌ﴾ نكرة، و﴿مُحْضَرُونَ﴾ من صفته، ومعنى ﴿مُحْضَرُونَ﴾ مجموعون أحضروا موقف الحسب؛ وهو كقوله: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧]، قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تَنْظُمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أي لا تنقص من ثواب عمل، ﴿وَلَا نُجْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿مَا﴾ في محل نصب من وجهين: الأول: أنه مفعول ثان لما لم يسم فاعله، والثاني: بنزع حرف الصفة تقديره: إلا بما كنتم تعملون؛ أي تعملونه فحذف.

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ ﴿٣٦﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّلٍ عَلَى الْأَرَابِ مُتَّكِنُونَ ﴿٣٧﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٣٨﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ ﴿٣٩﴾ وَأَمْتَنُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس وقتادة ومجاهد: شغلهم افتضاض العبادي^(٣)، وذكر الترمذي الحكيم في كتاب «مشكل القرآن» له: حدثنا محمد بن (١) ضعيف؛ وهو بنحوه عن ابن ماجه (٣٩٤٧) في سننه، وضعفه الألباني هناك، ولفظه: «أكرم على الله من بعض ملائكته».

(٢) ولا يصح هذا سنداً ولا متناً، وإن صح فهي شاذة أو تفسيرية انظر: المحرر الوجيز (١٣/ ١٩٨) لابن عطية.

(٣) لا يصح: فيه محمد بن حميد الرازي وهو ضعيف عن ابن مسعود.

وهو حسن إلى ابن عباس، وإلى قتادة كما في تفسير الطبري (٢٣/ ١٩، ٢٠).

حميد الرازي، حدثنا يعقوب القمي، عن حفص بن حميد، عن شمر بن عطية، عن شقيق بن سلمة، عن عبدالله بن مسعود في قوله: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَاهُونَ﴾ قال: شغلهم اقتضاض العذارى^(١)، حدثنا محمد بن حميد، حدثنا هارون بن المغيرة، عن نهشل، عن الضحاك، عن ابن عباس بمثله^(٢)، وقال أبو قلابة: بينما الرجل من أهل الجنة مع أهله إذ قيل له: تحول إلى أهلك فيقول: أنا مع أهلي مشغول؛ فيقال: تحول أيضا إلى أهلك، وقيل: أصحاب الجنة في شغل بما هم فيه من اللذات والنعيم عن الاهتمام بأهل المعاصي ومصيرهم إلى النار، وما هم فيه من أليم العذاب، وإن كان فيهم أقرباؤهم وأهلهم؛ قاله سعيد بن المسيب وغيره^(٣)، وقال وكيع: يعني في السماع، وقال ابن كيسان ﴿فِي شُغْلٍ﴾ أي في زيارة بعضهم بعضا، وقيل: في ضيافة الله تعالى، وروي أنه إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين عبادي الذين أطاعوني وحفظوا عهدي بالغيب؟ فيقومون كأنما وجوههم البدر والكوكب الدرّي، ركبانا على نجب من نور، أزمتها من الياقوت، تطير بهم على رؤوس الخلائق، حتى يقوموا بين يدي العرش، فيقول الله جل وعز لهم: «السلام على عبادي الذين أطاعوني وحفظوا عهدي بالغيب، أنا اصطفتيكم وأنا اجتبيتكم، وأنا اخترتكم، اذهبوا فادخلوا الجنة بغير حساب ف ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨] فيمرون على الصراط كالبرق الخاطف فتفتح لهم أبوابها، ثم إن الخلق في المحشر موقوفون فيقول بعضهم لبعض: يا قوم أين فلان وفلان؟! وذلك حين يسأل بعضهم بعضا فينادي مناد ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَاهُونَ﴾، و﴿شُغْلٌ﴾ و﴿شُغْلٌ﴾ لغتان قرئ بهما؛ مثل الرعب والرعب؛ والسحت والسحت؛ وقد تقدم، ﴿فَكَاهُونَ﴾ قال الحسن: مسرورون، وقال ابن عباس: فرحون. مجاهد والضحاك: معجبون. السدي: ناهمون، والمعنى متقارب، والفاكاهة المزاح والكلام الطيب، وقرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج: «فكاهون» بغير ألف^(٤) وهما لغتان كالفاره والفره، والحاذر والحذير؛ قاله الفراء، وقال الكسائي وأبو عبيدة: الفاكه ذو الفاكهة؛ مثل شاحم ولاحم وتامر ولابن، والفاكه: المتفكه والمنعم، و«فكاهون» بغير ألف في قول قتادة: معجبون^(٥)، وقال أبو زيد: يقال: رجل فكه: إذا كان طيب النفس ضحوكا، وقرأ طلحة بن مصرف: «فكاهين» نصبه على الحال، ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكُونَ﴾ مبتدأ وخبره، ويجوز أن يكون ﴿هُمْ﴾ توكيدا ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ عطف على المضممر، و﴿مُتَكُونَ﴾ نعت لقوله: ﴿فَكَاهُونَ﴾، وقراءة العامة «في ظلال»^(٦) بكسر الظاء والألف، وقرأ ابن مسعود وعبيد بن عمير والأعمش ويحيى

(١) هذا إسناد واه: فيه محمد بن حميد الرازي وهو متهم بالكذب، وشمر بن عطية غالي في عثمان ولم يوثقه إلا ابن حبان، وحفص بن حميد جهله أبو حاتم، وابن المديني، ولم يرو عنه إلا يعقوب القمي وشقيق بن سلمة وهو أبو وائل، والأثر عند تفسير الطبري بنفس الإسناد (١٩/٢٣، ٢٠).

(٢) موضوع: فيه نهشل بن سعيد وهو كذاب، وأحاديثه مناكير كما قال البخاري - رحمه الله - في التاريخ الكبير (٨/ ١١٥).

(٣) مثل هذا يحتاج إلى توقيف وقد رأيت بنحوه بسند فيه جهالة كما في الزهد (٢٧٤) لابن المبارك، ولم يرو عن صحابي يرفعه، أو يوقفه فهو ضعيف.

(٤) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص ١٦٥).

(٥) صحيح إليه: عبد الرزاق (٢٤٠٩) في تفسيره. (٦) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص ١٦٥).

وحمزة والكسائي وخلف: «فِي ظُلُلٍ» بضم الظاء من غير الف؛ فالظلال جمع ظل، وظلل جمع ظلة، «عَلَى الْأَرَائِكِ» يعني السرر في الحجال واحدها أريكة؛ مثل سفينة وسفائن؛ قال الشاعر:

كَأَنَّ أَحْمَرَ الرَّوْدِ فَوْقَ غُصُونِهِ بوقت الضحى في روضة المتضاحك
خُدُودُ عِدَارِيٍّ قَدْ خَجَلْنَ مِنَ الْحَيَا تَهَادَيْنَ بِالرِّيحَانِ فَوْقَ الْأَرَائِكِ

وفي الخبر عن أبي سعيد الخدري قال النبي ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ كُلَّمَا جَامَعُوا نِسَاءَهُمْ عَدْنَ أَبْكَارًا»^(١)، وقال ابن عباس: إن الرجل من أهل الجنة ليعانق الحوراء سبعين سنة، لا يملها ولا تملة، كلما تامها وجدها بكرا، وكلما رجع إليها عادت إليه شهوته؛ فيجامعها بقوة سبعين رجلا، لا يكون بينهما مني؛ يأتي من غير مني منه ولا منها^(٢)، «وَلَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ» ابتداء وخبر، «وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ» الدال الثانية مبدلة من تاء، لأنه يفتعلون من دعا، أي: من دعا بشيء أعطيه، قاله أبو عبيدة؛ فمعنى «يَدْعُونَ» يعنون من الدعاء، وقيل: المعنى: أن من ادعى منهم شيئا فهو له؛ لأن الله تعالى قد طبعهم على ألا يدعي منهم أحد إلا ما يجمل ويحسن أن يدعيه، وقال يحيى بن سلام «يَدْعُونَ» يشتهون، ابن عباس^(٣): يسألون، والمعنى متقارب، قال ابن الأثيري: «وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ» وقف حسن، ثم تبدئ «سَلَامٌ» على معنى ذلك لهم سلام، ويجوز أن يرفع السلام على معنى ولهم ما يدعون مسلم خالص، فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على «مَا يَدْعُونَ»، وقال الزجاج «سَلَامٌ» مرفوع على البدل من «مَا» أي ولهم أن يسلم الله عليهم، وهذا من أهل الجنة، وروي من حديث جرير بن عبد الله البجلي أن رسول الله ﷺ قال: «بَيْنَا أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي نَعِيمِهِمْ إِذْ سَطَعَ لَهُمْ نُورٌ فَرَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ فَإِذَا الرَّبُّ تَعَالَى قَدْ اطَّلَعَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ فَقَالَ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَذَلِكَ قَوْلُهُ: «سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ»، فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم فيبقى نوره وبركاته عليهم في ديارهم»^(٤) ذكره الثعلبي والقشيري، ومعناه ثابت في صحيح مسلم^(٥)، وقد بيناه في «يونس» عند قوله تعالى: «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ» [يونس: ٢٦]، ويجوز أن تكون «مَا» نكرة؛ و«سَلَامٌ» نعتا لها؛ أي ولهم ما يدعون مسلم، ويجوز أن تكون «مَا» رفع بالابتداء، و«سَلَامٌ» خبر عنها، وعلى هذه الوجوه لا يوقف على «وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ»، وفي قراءة ابن مسعود «سلاما» يكون مصدرا، وإن شئت في موضع الحال؛ أي ولهم ما يدعون ذا سلام أو سلامة أو مسلما؛ فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على «يَدْعُونَ» وقرأ محمد بن كعب القرظي: «سلم» على الاستئناف كأنه قال: ذلك سلم لهم لا يتنازعون فيه، ويكون «وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ» تاما، ويجوز أن يكون «سَلَامٌ» بدلا من قوله: «وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ»، وخبر «مَا يَدْعُونَ» «لهم»، ويجوز أن

(١) موضوع: الزبار والطبراني في الصغير كما في المجمع (١٠ / ٤١٧) للهيتمي - رحمه الله - وقال: «وفيه مَعْلَى بن عبد الرحمن الواسطي: كَذَابٌ» .

(٢) سبق تخريج هذا وتضعيفه خاصة بذكر العدد (سبعين) .

(٣) انظر: فتح القدير (٦ / ١٧٤) للشوكاني .

(٤) ضعيف: وهو عن جابر - رضي الله عنه - لا عن جرير، كما ذكره ابن كثير (٦ / ٣٨١) في تفسيره، وابن ماجه (١٨٤) في المقدمة بسند ضعفه الألباني .

(٥) صحيح: وقد سبق .

يكون ﴿سَلَامٌ﴾ خبراً آخر، ويكون معنى الكلام أنه لهم محالض من غير منازع فيه، ﴿قَوْلًا﴾ مصدر على معنى قال الله ذلك قولاً، أو بقوله قولاً، ودل على الفعل المحذوف لفظ مصدره، ويجوز أن يكون المعنى ولهم ما يدعون قولاً؛ أي عِدَّة من الله، فسُملَى هذا المذهب الثاني لا يحسن الوقف على ﴿يَدْعُونَ﴾، وقال السجستاني: الوقف على قوله: ﴿سَلَامٌ﴾ تام؛ وهذا خطأ لأن القول خارج عما قبله. قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا زَوْجُ الْيَوْمِ أَيْهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ويقال تميزوا وأمازوا وامتازوا بمعنى؛ ومزته فامتاز وامتاز، ومميزته فتميز، أي يقال لهم هذا عند الوقوف للسؤال حين يؤمر بأهل الجنة إلى الجنة؛ أي اخرجوا من جملتهم، قال قتادة: عزلوا عن كل خير^(١)، وقال الضحاك: يمتاز المجرمون بعضهم من بعض؛ فيمتاز اليهود فرقة، والنصارى فرقة، والمجوس فرقة، والصابئون فرقة، وعبداء الأوثان فرقة^(٢)، وعنه أيضاً: إن لكل فرقة في النار بيتاً تدخل فيه ويرد بابها؛ فتكون فيه أبداً لا ترى ولا تُرى، وقال داود بن الجراح: فيمتاز المسلمون من المجرمين، إلا أصحاب الأهواء فيكونون مع المجرمين^(٣).

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۗ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۗ وَقَدْ أَضَلُّ مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا أَفَلَا تَكُونُونَ تَعْلَمُونَ ۗ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۗ أَي عِبَادَتِي تُوَعَدُونَ ۗ أَصَلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۗ﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ﴾ العهد هنا بمعنى الوصية؛ أي ألم أوصيكم وأبلغكم على السنة الرسل، ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ أي لا تطيعوه في معصيتي، قال الكسائي: لا للنهي، ﴿وَأَنْ اعْبُدُونِي﴾ بكسر النون على الأصل، ومن ضم كره كسرة بعدها ضمة، ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي عبادتي دين قويم.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَضَلُّ مِنْكُمْ﴾ أي اغوى ﴿جِبَلًا كَثِيرًا﴾ أي خلقاً كثيراً؛ قاله مجاهد، قتادة: جموعاً كثيرة^(٤). الكلبي: أما كثيرة؛ والمعنى واحد، وقرأ أهل المدينة وعاصم: ﴿جِبَلًا﴾ بكسر الجيم والباء، وأبو عمرو وابن عامر: ﴿جِبَلًا﴾ بضم الجيم وإسكان الباء^(٥)، الباقون ﴿جِبَلًا﴾ بضم الجيم^(٦) والباء وتخفيف اللام، وشدها الحسن وابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر وعبد الله بن عبيد والنضر ابن أنس^(٧)، وقرأ أبو يحيى والأشهب العقيلي: ﴿جِبَلًا﴾ بكسر الجيم وإسكان الباء وتخفيف اللام^(٨)، فهذه خمس قراءات، قال المهدوي والثعلبي: وكلها لغات بمعنى الخلق، النحاس: أبينها القراءة الأولى؛ والدليل على ذلك أنهم قد أجمعوا على أن قرؤوا: ﴿وَالْجِبَلُ الْأُولَى﴾ [الشعراء: ١٨٤] فيكون

(١) صحيح: الطبري (٢٣/ ٢٤) في تفسيره.

(٢) (٣، ٢) ذكرهما الشوكاني (٦/ ١٧٤) في فتح القدير، والبغوي (٧/ ٢٣) في تفسيره، وانظر: البحر المحيط (٧/ ٣٤٣) لابن حيان.

(٤) ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره كما في الدر المنثور (٥/ ٥٠٢) للسيوطي، وفتح القدير (٦/ ٧٤) للشوكاني.

(٥) (٧ - ٥) قراءات متواترة: انظر تقريب النشر (ص ١٦٥).

(٨) قراءة غير متواترة: انظر: المحرر الوجيز (١٣/ ٢١٠) لابن عطية.

﴿جِبَلًا﴾ جمع جبلة والاشتقاق فيه كله واحد، وإنما هو من جبل الله عز وجل الخلق أي خلقهم، وقد ذكرت قراءة سادسة وهي: «ولقد أضل منكم جبلا كثيرا» بالياء (١)، وحكي عن الضحاك أن الجبل الواحد عشرة آلاف، والكثير ما لا يحصيه إلا الله عز وجل؛ ذكره الماوردي، ﴿أَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ عداوته وتعلموا أن الواجب طاعة الله، ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ﴾ أي تقول لهم خزنة جهنم هذه جهنم التي وعدتم فكذبتم بها، وروي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة جمع الله الإنس والجن والأولين والآخرين في صعيد واحد ثم أشرف عنق من النار على الخلائق فأحاط بهم ثم ينادي مناد: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٢٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٢٤) ﴿فحينئذ نجثو الأمم على ركبها وتضع كل ذات حمل حملها؛ وتذهل كل مرضعة عما أرضعت، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد» (٢).

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٢٥) ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ (٢٦) ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَاتِبِهِمْ فَمَا اسْتَبْطَعُوا مِصْرِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ (٢٧) ﴿وَمَنْ نَعْمِرْهُ نَتَكِسُّهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (٢٨) ﴿

قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ في صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: «هل تدرون مم أضحك؟ قلنا: الله ورسوله أعلم قال: «من مخاطبة العبد ربه، يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول بلى، فيقول: إني لا أجزى على نفسي إلا شاهدا مني قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين شهودا قال: فيختم على فيه فيقال لأركانه: انطقي. قال: فتنتق بأعماله قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول: بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل» (٣) خرج أيضا من حديث أبي هريرة، وفيه: «ثم يقال له الآن نبعث شاهدا عليك ومتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد علي فيختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي، فتنتق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليعذر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه» (٤)، وخرج الترمذي عن معاوية بن حيدة عن النبي ﷺ في حديث ذكره قال: وأشار بيده إلى الشام فقال: «من ها هنا إلى ها هنا تحشرون ركبانا ومشاة وتجرون على وجوهكم يوم القيامة على أفواهكم الفدाम، توفون سبعين أمة أنتم خيرهم وأكرمهم على الله، وإن أول ما يعرب عن أحدكم فخذه» (٥) في رواية أخرى: «فخذه وكفه» الفدाम: مصفاة الكوز والإبريق؛ قاله الليث. قال أبو عبيد: يعني أنهم منعوا الكلام حتى تكلم أفخاذهم فشبّه ذلك بالفدाम.

(١) قراءة غير متواترة: انظر: المحرر الوجيز (١٣/ ٢١٠) لابن عطية.

(٢) لم أجده بهذا المتن الغريب، وفيه نكارة، وهو في الصحيح لكن الساعة المذكورة هي ساعة قيام آدم عليه السلام ليخرج بعث النار بإذن الله تعالى.

(٣) صحيح: مسلم (٢٩٦٩) في الزهد. (٤) صحيح: مسلم (٢٩٦٨) في الزهد.

(٥) رجاله ثقات: واه أحمد كما في المجمع (١٠/ ٣٩٧)، والترمذي ببعضه دون ذكر الحديث كاملاً كما برقم

(٣٠٠١) وحسنه الألباني هناك.

الذي يجعل على الإبريق، ثم قيل في سبب الختم أربعة أوجه: أحدها: لأنهم قالوا: ﴿وَاللَّهُ رَجَبًا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] فختم الله على أفواههم حتى نطقت جوارحهم؛ قاله أبو موسى الأشعري^(١)، الثاني: ليعرفهم أهل الموقف فيتميزون منهم؛ قاله ابن زياد، الثالث: لأن إقرار غير الناطق أبلغ في الحجة من إقرار الناطق لخروجه مخرج الإعجاز، إن كان يوما لا يحتاج إلى إعجاز، الرابع: ليعلم أن أعضائه التي كانت أعوانا في حق نفسه صارت عليه شهودا في حق ربه، فإن قيل: لم قال: ﴿وَتَكَلَّمْنَا بِأَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾ فجعل ما كان من اليد كلاما، وما كان من الرجل شهادة؟ قيل: إن اليد مباشرة لعمله والرجل حاضرة، وقول الحاضر على غيره شهادة، وقول الفاعل على نفسه إقرار بما قال أو فعل؛ فلذلك عبر عما صدر من الأيدي بالقول، وعما صدر من الأرجل بالشهادة، وقد روي عن عقبه بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه فخذ من الرجل اليسرى»^(٢)، ذكره الماوردي والمهدوي، وقال أبو موسى الأشعري: إني لأحسب أن أول ما ينطق منه فخذة اليمنى^(٣)؛ ذكره المهدوي أيضا، قال الماوردي: فاحتمل أن يكون تقدم الفخذ بالكلام على سائر الأعضاء؛ لأن لذة مغاصيه يدركها بحواسه التي هي في الشطر الأسفل منها الفخذ، فجاز لقربه منها أن يتقدم في الشهادة عليها، قال: وتقدمت اليسرى؛ لأن الشهوة في ميامن الأعضاء أقوى منها في مياسرها؛ فلذلك تقدمت اليسرى على اليمنى لقلّة شهوتها.

قلت: أو بالعكس لغلبة الشهوة، أو كلاهما معا والكف؛ فإن بمجموع ذلك يكون تمام الشهوة واللذة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُصِرُّونَ﴾ حكى الكساني: طمس يطمس ويطمس، والمطموس والطميس عند أهل اللغة الأعمى الذي ليس في عينه شق، قال ابن عباس: المعنى لأعميناهم عن الهدى، فلا يهتدون أبدا إلى طريق الحق^(٤)، وقال الحسن والسدي: المعنى لتركناهم عميا يترددون^(٥)، فالمعنى لأعميناهم فلا يبصرون طريقا إلى تصرفهم في منازلهم ولا غيرها، وهذا اختيار الطبري^(٦)، وقوله: ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ أي استبقوا الطريق ليجوزوا ﴿فَأَنَّى يُصِرُّونَ﴾ أي فمن أين يبصرون، وقال عطاء ومقاتل وقتادة وروى عن ابن عباس: ولو نشاء لفقنا أعين ضلالتهم، وأعميناهم عن غيهم، وحولنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى؛ فاهتدوا وأبصروا رشدهم، وتبادروا إلى طريق الآخرة^(٧)، ثم قال: ﴿فَأَنَّى يُصِرُّونَ﴾ ولم نفعل ذلك بهم؛ أي فكيف يهتدون وعين الهدى مطموسة، وعلى الضلال باقية؟! وقد روي عن عبدالله بن سلام في تأويل هذه

(١) (٢، ١) ورواه الطبري (٢٣ / ٢٦) ورجال ثقات .

(٣) جيد: جوّده الهيمى مرفوعاً (١٠ / ٣٥١) في المجمع وعزاه لأحمد والطبراني .

(٤) منقطع بين علي بن أبي طلحة ، وابن عباس : الطبري (٢٣ / ٢٦ ، ٢٧) في تفسيره .

(٥) أثر السدي عند ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٥ / ٥٠٤) ، للسيوطي وذكره ابن كثير (٦ / ٣٨٤) في تفسيره .

(٦) انظر: السابق (٢٣ / ٢٧) في تفسيره .

(٧) ضعيف : ابن كثير (٦ / ٣٨٤) من طريق العوفيين وهو مليء بالجهالة .

وانظر : تفسير البغوي (٧ / ٢٥) وزاد المسير (٥ / ١٩٨) لابن الجوزي .

الآية غير ما تقدم، وتأولها على أنها في يوم القيامة، وقال: إذا كان يوم القيامة ومد الصراط، نادى مناد: ليقيم محمد ﷺ وأمته؛ فيقومون برهم وفاجرهم يتبعونه ليجوزوا الصراط، فإذا صاروا عليه طمس الله أعين فجارهم، فاستبقوا الصراط فمن أين يبصرونه حتى يجاوزوه، ثم ينادي مناد: ليقيم عيسى وأمته؛ فيقوم فيتبعونه برهم وفاجرهم فيكون سبيلهم تلك السبيل، وكذا سائر الأنبياء عليهم السلام^(١)، ذكره النحاس وقد كتبناه في «التذكرة» بمعناه حسب ما ذكره ابن المبارك في رقايقه، وذكره القشيري، وقال ابن عباس رضي الله عنه: أخذ الأسود بن الأسود حجرا ومعه جماعة من بني مخزوم لي طرحه على النبي ﷺ؛ فطمس الله على بصره، وألصق الحجر بيده، فما أبصره ولا اهتدى، ونزلت الآية فيه، والمطموس هو الذي لا يكون بين جفنيه شق، مأخوذ من طمس الريح الأثر؛ قاله الأخفش والقتبي.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ المسخ: تبديل الخلقة وقلبها حجرا أو جمادا أو بهيمة، قال الحسن: أي لا تعدناهم فلا يستطيعون أن يمضوا أمامهم ولا يرجعوا وراءهم^(٢)، وكذلك الجماد لا يتقدم ولا يتأخر، وقد يكون المسخ تبديل صورة الإنسان بهيمة، ثم تلك البهيمة لا تعقل موضعا تقصده فتتحير، فلا تقبل ولا تدبر، ابن عباس رضي الله عنه: المعنى لو نشاء لأهلكناهم في مساكنهم^(٣)، وقيل: المعنى لو نشاء لمسخناهم في المكان الذي اجترؤوا فيه على المعصية. ابن سلام: هذا كله يوم القيامة يطمس الله تعالى أعينهم على الصراط، وقرأ الحسن والسلمي وزر بن حبيش وعاصم في رواية أبي بكر «مكاناتهم»^(٤) على الجمع، الباقون بالتوحيد، وقرأ أبو حيو: «فما استطاعوا مضيا» بفتح الميم، والمضى بضم الميم مصدر يمضي مضيا إذا ذهب. قوله تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ قرأ عاصم وحمزة «ننكسه» بضم النون الأولى وتشديد الكاف من التنكيس، الباقون «ننكسه» بفتح النون الأولى وضم الكاف^(٥) من نكست الشيء أنكسه نكسا قلبته على رأسه فانتكس، قال قتادة: المعنى أنه يصير إلى حال الهرم الذي يشبه حال الصبا^(٦)، وقال سفيان في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ إذا بلغ ثمانين سنة تغير جسمه وضعفت قوته، قال الشاعر:

من عَاشَ أَحَلَقْتَ أَيَّامَ جَدَّتِهِ وَخَانَ ثِقَاتَهُ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ

فطول العمر يصير الشباب هرما، والقوة ضعفا، والزيادة نقصا، وهذا هو الغالب، وقد تعود ﷺ من أن يرد إلى أزدل العمر، وقد مضى في «النحل» بيانه^(٧)، «أَفَلَا يَعْلَمُونَ» أن من فعل هذا بكم قادر على بعثكم، وقرأ نافع وابن ذكوان: «تعقلون» بالتاء^(٨)، الباقون بالياء.

(١) خير صحيح: ابن المبارك (٣٩٨) في الزهد والرقائق.

(٢) حسن: الطبري (٢٣/٢٨) في تفسيره.

(٣) ضعيف: الطبري (٢٣/٢٨) مر طريق العوفيين.

(٤، ٥) قراءتان متواترتان: تقريب النشر (ص ١١٢، ١٦٥) على التوالي.

(٦) هو بمعناه عند الطبري (٢٣/٢٩) في تفسيره.

(٧) عند الآية (٧٠).

(٨) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص ١٠٩).

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١٥﴾

ليه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ أخبر تعالى عن حال هببه ﷺ، ورد قول من قال من الكفار: إنه شاعر، وإن القرآن شعر، بقوله: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ وكذلك كان رسول الله ﷺ لا يقول الشعر ولا يزنه، وكان إذا حاول إنشاد بيت قديم مستملا كسر وزنه، وإنما كان يحرز المعاني فقط ﷺ، من ذلك أنه أنشد يوما قول طرفة:

سَبَّيْ لِكَ الْأِيَامِ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ مِنْ لَمْ تَزُوْدَهُ بِالْأَخْبَارِ (١)
وأنشد يوما وقد قيل له من أشعر الناس؟ فقال: الذي يقول:

أَلَمْ تَرِيَانِي كَلَّمَا جُنْتُ طَارِقًا وَجَدْتُ بِهَا وَإِنْ لَمْ تَطْيَبْ طَيِّبًا (٢)

وأنشد يوما:

أَجْعَلُ نَهْبِي وَنَهْبَ الْعَبِّ يَدِ بَيْنِ الْأَقْرَعِ وَعِيْنَةَ (٣)

وقد كان عليه السلام ربما أنشد البيت المستقيم في النادر، روي أنه أنشد بيت عبد الله بن رواحة:

بَيْتٌ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ إِذَا اسْتَقَلْتُ بِالْمَشْرِكِينَ الْمُضَاجِعُ (٤)

وقال الحسن بن أبي الحسن: أنشد النبي عليه السلام:

«كَفَى بِالْإِسْلَامِ وَالشَّيْبِ لِلْمَرْءِ نَاهِيًا»

فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله إنما قال الشاعر:

هَرِيرَةٌ وَدَعٌّ إِنْ تَجَهَّزْتَ غَادِيًا كَفَى الشَّيْبُ وَالْإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيًا نَاهِيًا

فقال أبو بكر أو عمر: أشهد أنك رسول الله، يقول الله عز وجل: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ (٥)، وعن الخليل بن أحمد: كان الشعر أحب إلى رسول الله ﷺ من كثير من الكلام، ولكن لا يتأتى له.

الثانية: إصابته الوزن أحيانا لا يوجب أنه يعلم الشعر، وكذلك ما يأتي أحيانا من نثر كلامه ما يدخل في وزن، كقوله يوم حنين وغيره:

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيْتِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيْتِ (٦)

(١) صحيح: الترمذي (٢٨٤٨) في التفسير، عن عائشة - رضي الله عنها، وصححه الألباني في هناك.

قلت: والصحيح: ويأتيك بالأخبار ما لم تُزود.

(٢) كذا في المحرر الوجيز (١٣/ ٢١٣).

(٣) مرسل: عزاه السيوطي (٥/ ٥٠٥) في الدر لابن سعد، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد وهو تابعي.

(٤) له أصل في البخاري (١١٥٥) في التهجد، عن أبي هريرة - رضي الله عنه.

(٥) ضعيف للإرسال: وقد أرسله الحسن البصري، وفيه إليه علي بن زيد وهو الجدعاني، وانظر: تفسير ابن كثير

(٦) (٣٨٥/ ٦) وعزاه لابن أبي حاتم.

(٦) متفق عليه: وقد سبق.

وقوله:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب (١)

فقد يأتي مثل ذلك في آيات القرآن، وفي كل كلام؛ وليس ذلك شعرا ولا في معناه؛ كقوله تعالى: ﴿لَنْ نَقُولُوا الْبُرْ حَتَّىٰ تَنْفُقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وقوله: ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣]، وقوله: ﴿رَجَفَانِ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ [سبا: ١٣] إلى غير ذلك من الآيات، وقد ذكر ابن العربي منها آيات وتكلم عليها وأخرجها عن الوزن، على أن أبا الحسن الأخفش قال في قوله: «أنا النبي لا كذب» ليس بشعر، وقال الخليل في كتاب: «العين»: إن ما جاء من السجع على جزأين لا يكون شعرا، وروي عنه أنه من منهوك الرجز، وقد قيل: لا يكون من منهوك الرجز إلا بالوقف على الباء من قوله: «لا كذب»، ومن قوله: «عبد المطلب»، ولم يعلم كيف قاله النبي ﷺ، قال ابن العربي: والأظهر من حاله أنه قال: «لا كذب» الباء مرفوعة، ويخفض الباء من عبد المطلب على الإضافة، وقال النحاس قال بعضهم: إنما الرواية بالإعراب، وإذا كانت بالإعراب لم يكن شعرا؛ لأنه إذا فتح الباء من البيت الأول أو ضمها أو نونها، وكسر الباء من البيت الثاني خرج عن وزن الشعر، وقال بعضهم: ليس هذا الوزن من الشعر، وهذا مكابرة العيان؛ لأن أشعار العرب على هذا قد رواها الخليل وغيره، وأما قوله: «هل أنت إلا إصبع دميت» فقيل: إنه من بحر السريع، وذلك لا يكون إلا إذا كسرت التاء من دميت، فإن سكن لا يكون شعرا بحال؛ لأن هاتين الكلمتين على هذه الصفة تكون «فِعُولٌ»، ولا مدخل لفِعُولٌ في بحر السريع، ولعل النبي ﷺ قالها ساكنة التاء أو متحركة التاء من غير إشباع، والمعول عليه في الانفصال على تسليم أن هذا شعر، ويسقط الاعتراض، ولا يلزم منه أن يكون النبي ﷺ عالما بالشعر ولا شاعر: أن التمثيل بالبيت التزر وإصابة القافيتين من الرجز وغيره، لا يوجب أن يكون قائلها عالما بالشعر، ولا يسمى شاعرا باتفاق العلماء، كما أن من خاط خيطا لا يكون خياطاً، قال أبو إسحاق الزجاج: معنى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ وما علمناه أن يشعر أي ما جعلناه شاعرا، وهذا لا يمنع أن ينشد شيئا من الشعر، قال النحاس: وهذا من أحسن ما قيل في هذا، وقد قيل: إنما خبر الله عز وجل أنه ما علمه الله الشعر ولم يخبر أنه لا ينشد شعرا، وهذا ظاهر الكلام، وقيل فيه قول بين، زعم صاحبه أنه إجماع من أهل اللغة، وذلك أنهم قالوا: كل من قال قولاً موزوناً لا يقصد به إلى شعر فليس بشعر وإنما وافق الشعر، وهذا قول بين، قالوا: وإنما الذي نفاه الله عن نبيه عليه السلام فهو العلم بالشعر وأصنافه، وأعارضه وقوافيه والاتصاف بقوله، ولم يكن موصوفاً بذلك بالاتفاق، ألا ترى أن قريشا تراوضت فيما يقولون للعرب فيه إذا قدموا عليهم الموسم، فقال بعضهم: نقول إنه شاعر، فقال أهل الفطنة منهم: والله لتكذبنكم العرب، فإنهم يعرفون أصناف الشعر، فوالله ما يشبه شيئا منها، وما قوله بشعر، وقال أنيس أخو أبي ذر: لقد وضعت قوله على أقرأء الشعر فلم يلتئم أنه شعر (٢)، أخرجه مسلم، وكان أنيس من أشعر العرب،

(١) متفق عليه: البخاري (٢٨٣٧) في الجهاد، ومسلم (١٨٠٣) في الجهاد.

(٢) صحيح: مسلم (٢٤٧٣/١٣٢) في فضائل الصحابة عن أبي ذر في قصة إسلامه، من طريق عبد الله بن الصامت.

وكذلك عتبة بن أبي ربيعة لما كلمه: والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر؛ على ما يأتي بيانه من خبره في سورة «فصلت» إن شاء الله تعالى، وكذلك قال غيرهما من فصحاء العرب العرباء، واللسن البلغاء، ثم إن ما يجري على اللسان من موزون الكلام لا يعد شعرا، وإنما يعد منه ما يجري على وزن الشعر مع القصد إليه؛ فقد يقول القائل: حدثنا شيخ لنا وينادي: يا صاحب الكسائي، ولا يعد هذا شعرا، وقد كان رجل ينادي في مرضه وهو من عرض العامة العقلاء: اذهبوا بي إلى الطبيب وقولوا: قد اکتوى.

الثالثة: روى ابن القاسم عن مالك أنه سئل عن إنشاد الشعر فقال: لا تكثرن منه؛ فمن عيبه أن الله يقول: ﴿وَمَا عَلَّمَاهُ الشَّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ قال: ولقد بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى أبي موسى الأشعري: أن أجمع الشعراء قبلك؛ وسلهم عن الشعر، وهل بقي معهم معرفة؛ وأحضر لييدا ذلك؛ قال: فجمعهم فسألهم فقالوا: إنا لنعرفه ونقوله، وسأل لييدا فقال: ما قلت شعرا منذ سمعت الله عز وجل يقول: ﴿الَّتِي ذَكَرَ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (١) [البقرة]. قال ابن العربي (٢): هذه الآية ليست من عيب الشعر؛ كما لم يكن قوله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] من عيب الكتابة، فلما لم تكن الامية من عيب الخط، كذلك لا يكون نفي النظم عن النبي ﷺ من عيب الشعر، روي أن المأمون قال لأبي علي المنقري: بلغني أنك أُمي، وأنك لا تقيم الشعر، وأنك تلحن، فقال: يا أمير المؤمنين، أما اللحن فربما سبق لساني منه بشيء، وأما الامية وكسر الشعر فقد كان رسول الله ﷺ لا يكتب ولا يقيم الشعر، فقال له: سألتك عن ثلاثة عيوب فيك فزدتني رابعا وهو الجهل، يا جاهل! إن ذلك كان للنبي ﷺ فضيلة، وهو فيك وفي أمثالك نقيصة، وإنما منع النبي ﷺ ذلك لنفي الظنة عنه، لا لعب في الشعر والكتابة.

الرابعة: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أي وما ينبغي له أن يقوله، وجعل الله جل وعز ذلك علما من أعلام نبيه عليه السلام لئلا تدخل الشبهة على من أرسل إليه؛ فيظن أنه قسوي على القرآن بما في طبعه من القوة على الشعر، ولا اعتراض للملحد على هذا بما يتفق الوزن فيه من القرآن وكلام الرسول؛ لأن ما وافق وزنه وزن الشعر، ولم يقصد به إلى الشعر ليس بشعر؛ ولو كان شعرا لكان كل من نطق بموزون من العامة الذين لا يعرفون الوزن شاعرا؛ على ما تقدم بيانه، وقال الزجاج: معنى ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أي ما يتسهل له قول الشعر إلا الإنشاء، ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي هذا الذي يتلوه عليكم ﴿ذَكَرَ وَقُرْآنٌ مَبِينٌ﴾ .

قوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ أي حي القلب؛ قاله قتادة، الضحاك: عاقلا وقيل: المعنى لتنذر من كان مؤمنا في علم الله، هذا على قراءة التاء خطابا للنبي عليه السلام، وهي قراءة نافع وابن عامر، وقرأ الباقون بالياء (٣) على معنى لينذر الله عز وجل؛ أو لينذر محمد ﷺ، أو لينذر القرآن، وروي عن ابن السميعة: «لينذر» بفتح الياء والذال، ﴿وَيُحِقُّ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: ونجيب الحججة بالقرآن على الكفرة.

(١) سبق في سورة البقرة عند الآيتين (١، ٢).

(٢) أحكام القرآن (٤/ ١٦١٥) للفاضل ابن العربي المالكي .

(٣) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص ١٦٥) .

﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٣٦﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٣٧﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَتَنَفِعٌ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾ هذه رؤية القلب؛ أي: أو لم ينظروا ويعتبروا ويتفكروا، ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ أي مما أبدعناه وعملناه من غير واسطة ولا وكالة ولا شركة، و﴿مَا﴾ بمعنى الذي وحذفت الهاء لطول الاسم، وإن جعلت «ما» مصدرية لم تحتج إلى إضمار الهاء، ﴿أَنْعَامًا﴾ جمع نعم والنعم مذكر، ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ ضابطون قاهرون، ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ أي سخرناها لهم حتى يقود الصبي الجمل العظيم ويضربه ويصرفه كيف شاء لا يخرج من طاعته، ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ قراءة العامة بفتح الراء؛ أي مركوبهم، كما يقال: ناقة حلوب، أي: محلوب، وقرأ الأعمش والحسن وابن السميعة: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ بضم الراء على المصدر، وروى عن عائشة أنها قرأت: «فمنها ركوبتهم» وكذا في مصحفها، والركوب والركوبة واحد، مثل الحلوب والحلوبة، والحمول والحمولة، وحكى النحويون الكوفيون: أن العرب تقول: امرأة صبور وشكور بغير هاء، ويقولون: شاة حلوبة وناقة ركوبة؛ لأنهم أرادوا أن يفرقوا بين ما كان له الفعل وبين ما كان الفعل واقعا عليه، فحذفوا الهاء مما كان فاعلا وأثبتوها فيما كان مفعولا؛ كما قال:

فيها اثنتان وأربعون حلوبةً سوداً كخافية الغراب الأسحَم

فيجب أن يكون على هذا ركوبتهم، فأما البصريون فيقولون: حذفت الهاء على النسب، والحجة للقول الأول ما رواه الجرمي عن أبي عبيدة قال: الركوبة تكون للواحد والجماعة، والركوب لا يكون إلا للجماعة، فعلى هذا يكون لتذكير الجمع، وزعم أبو حاتم: أنه لا يجوز «فمنها رُكُوبُهُمْ» بضم الراء لأنه مصدر؛ والركوب ما يركب، وأجاز الفراء «فمنها ركوبهم» بضم الراء، كما تقول: فمنها أكلهم ومنها شربهم، ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ من لحمها: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ من أصوافها وأوبارها وأشعارها وشحومها ولحومها وغير ذلك، ﴿وَمَشَارِبُ﴾ يعني ألبانها؛ ولم ينصرفا لأنهما من الجمع التي لا نظير لها في الواحد، ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الله على نعمه.

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نصرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ ﴿٤٠﴾ فَلَا يَخْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ أي: قد رأوا هذه الآيات من قدوتنا، ثم اتخذوا من دوننا آلهة لا قدرة لها على فعل، ﴿لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لما يرجون من نصرتها لهم إن نزل بهم عذاب، ومن العرب من يقول: لعله أن يفعل، ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نصرَهُمْ﴾ يعني الآلهة، وجمعوا بالواو والنون؛ لأنه أخير عنهم بخير الآدميين، ﴿وَهُمْ﴾ يعني الكفار ﴿لَهُمْ﴾ أي للآلهة ﴿جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ﴾ قال الحسن: يمنعون منهم ويدفعون عنهم^(١)، وقال قتادة: أي يفضبون لهم في الدنيا^(٢)، وقيل: المعنى أنهم يعبدون الآلهة ويقومون بها؛ فهم لها بمنزلة الجند وهي لا تستطيع أن تنصرهم، وهذه الأقوال الثلاثة

متقاربة المعنى، وقيل: إن الألهة جند للعبدين محضرون معهم في النار، فلا يدفع بعضهم عن بعض، وقيل: معناه وهذه الأصنام لهؤلاء الكفار جند الله عليهم في جهنم؛ لأنهم يلعنونهم ويتبرؤون من عبادتهم، وقيل: الألهة جند لهم محضرون يوم القيامة لإعانتهم في ظنونهم، وفي الخبر: «إنه يمثل لكل قوم ما كانوا يعبدونه في الدنيا من دون الله فيتبعونه إلى النار؛ فهم لهم جند محضرون».

قلت: ومعنى هذا الخبر ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة، وفي الترمذي عنه أن النبي ﷺ قال: «يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد ثم يطلع عليهم رب العالمين فيقول: ألا ليتبع كل إنسان ما كان يعبد، فيمثل لصاحب الصليب صليبه، ولصاحب التصاوير تصاويره، ولصاحب النار ناره فيتبعون ما كانوا يعبدون ويبقى المسلمون» وذكر الحديث بطوله (١).

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ هذه اللغة الفصيحة، ومن العرب من يقول: يُحْزِنُكَ، والمراد تسلية نبيه عليه السلام؛ أي لا يحزنك قولهم: شاعر، ساحر، وتم الكلام، ثم استأنف فقال: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يَسِرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من القول والعمل وما يظهرون فنجازيهم بذلك.

﴿أَوْ لَمَّ يَرِ الْإِنْسَانَ أَنَا خَلَقْتَهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٣٧)

قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمَّ يَرِ الْإِنْسَانَ﴾ قال ابن عباس: الإنسان هو عبد الله بن أبي (٢)، وقال سعيد بن جبير: هو العاص بن وائل السهمي (٣)، وقال الحسن: هو أبي بن خلف الجمحي (٤)، وقاله ابن إسحاق، ورواه ابن وهب عن مالك، ﴿أَنَا خَلَقْتَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ وهو اليسير من الماء؛ نطف إذا قطر، ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ أي مجادل في الخصومة مبين للحجة، يريد بذلك أنه صار به بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً خصيماً مبيناً، وذلك أنه أتى النبي ﷺ بعظم حائل فقال: يا محمد أتري أن الله يحيي هذا بعد ما رم! فقال النبي ﷺ: «نعم وبيعتك الله ويدخلك النار» (٥) فنزلت هذه الآية.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٣٨)

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨)

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ أي ونسي أنا أنشأناه من نطفة ميتة فركبنا فيه الحياة، أي: جوابه من نفسه حاضر؛ ولهذا قال عليه السلام: «نعم وبيعتك الله ويدخلك النار» (٦) ففي

(١) متفق عليه: البخاري (٦٥٧٣) في الرقاق، ومسلم (١٨٢) في الإيمان.

(٢) ضعيف: رواه الطبري (٢٣/٢٣) في تفسيره من طريق العوفيين.

(٣) مرسل صحيح: الطبري (٢٣/٢٣) في تفسيره.

(٤) مرسل: ونقله عنه قتادة كما رواه الطبري (٢٣/٢٣) في تفسيره.

قلت: والصحيح أنه العاص بن وائل السهمي - كما في الرواية التالية.

(٥، ٦) صحيح: الحاكم (٢/٤٢٩) في المستدرک وصححه، وصححه الشيخ مقبل بن هادي الوادعي (ص ١٧٣) في الصحيح المسند من أسباب النزول، وانظر: ابن كثير (٦/٣٩٠) في تفسيره، وفيه ذكره: العاص بن وائل =

هذا دليل على صحة القياس؛ لأن الله جل وعز احتج على منكري البعث بالنشأة الأولى، ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ أي بالية، رم العظم فهو رميم ورمام، وإنما قال: ﴿رَمِيمٌ﴾ ولم يقل: رميمة؛ لأنها معدولة عن فاعلة، وما كان معدولاً عن وجهه ووزنه كان مصروفاً عن إعرابه؛ كقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ بَيْتًا﴾ [مریم: ٢٨] أسقط الهاء؛ لأنها مصروفة عن باغية، ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قيل: إن هذا الكافر قال للنبي ﷺ: أرأيت إن سحقتها وأذيتها في الريح أبعدها الله! فنزلت: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي من غير شيء فهو قادر على إعادتها في النشأة الثانية من شيء وهو عجم الذنب، ويقال: عجم الذنب بالباء، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ عليم كيف يبدئ ويعيد.

الثانية: في هذه الآية دليل على أن في العظام حياة وأنها تنجس بالموت، وهو قول أبي حنيفة وبعض أصحاب الشافعي، وقال الشافعي رضي الله عنه: لا حياة فيها، وقد تقدم هذا في «النحل» (١)، فإن قيل: أراد بقوله ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ﴾ أصحاب العظام وإقامة المضاف مقام المضاف إليه كثير في اللغة، موجود في الشريعة، قلنا: إنما يكون إذ احتيج لضرورة وليس ها هنا ضرورة تدعو إلى هذا الإضمار، ولا يفتر إلى هذا التقدير، إذا الباري سبحانه قد أخبر به وهو قادر عليه والحقيقة تشهد له؛ فإن الإحساس الذي هو علامة الحياة موجود فيه؛ قاله ابن العربي.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ﴾ ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلِيقُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ نبه تعالى على وحدانيته، ودل على كمال قدرته في إحياء الموتى بما يشاهدونه من إخراج المحرق اليابس من العود الندي الرطب، وذلك أن الكافر قال: النطفة حارة رطبة بطبع حياة فخرج منها الحياة، والعظم بارد يابس بطبع الموت فكيف تخرج منه الحياة! فأنزل الله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ أي إن الشجر الأخضر من الماء والماء بارد رطب ضد النار وهما لا يجتمعان، فأخرج الله منه النار؛ فهو القادر على إخراج الضد من الضد، وهو على كل شيء قدير، ويعني بالآية ما في المرخ والعفار، وهي زنادة العرب؛ ومنه قولهم: في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار^(٢)؛ فالعفار الزند وهو الأعلى، والمرخ الزندة وهي الأسفل؛ يؤخذ منهما غصنان مثل المسواكين يقطران ماء فيسحك بعضهما إلى بعض فتخرج منهما النار، وقال: ﴿مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ﴾ ولم يقل: الخضراء وهو جمع، لأن رده إلى اللفظ، ومن العرب من يقول: الشجر الخضراء؛ كما قال عز وجل: ﴿مِنَ شَجَرٍ مِّنْ زُفْرٍ ﴿٥٦﴾ فَمَا لَتَوْنَ مِنْهَا الْبَطُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الواقعة]،

= السهمي، وذكره الطبري (٢٣/ ٢٣) في تفسيره من دون ذكر ابن عباس - رضي الله عنهما.

قلت: وذكر ابن أبي سلول هنا خطأ فاحش لكون السورة مكية والله أعلم.

(١) عند الآية (٨٠).

(٢) المرخ والعفار: شجرتان فيهما نار ليس في غيرهما، وتضرب العرب المثل بها في استمجاد بعض أهل الفضل على غيرهم. الأمثال (ص ١٣٦) لابن سلام.

ثم قال تعالى محتجاً: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي أمثال المنكرين للبعث، وقرأ سلام أبو المنذر ويعقوب الحضرمي: «أوليس الذي خلق السموات والأرض يقدر على أن يخلق مثلهم» على أنه فعل، ﴿بَلَىٰ﴾ أي إن خلق السموات والأرض أعظم من خلقهم؛ فالذي خلق السموات والأرض يقدر على أن يبعثهم، ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾، وقرأ الحسن باختلاف عنه: «الخالق» . قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ قرأ الكسائي: «فيكون» بالنصب (١) عطفاً على ﴿يَقُولُ﴾ أي: إذا أراد خلق شيء لا يحتاج إلى تعب ومعالجة، وقد مضى هذا في غير موضع، ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ نزه نفسه تعالى عن العجز والشرك، وملكوت وملكوتي في كلام العرب بمعنى ملك، والعرب تقول: جبروتي خير من رحموتي، وقال سعيد عن قتادة: ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مفاتيح كل شيء، وقرأ طلحة بن مصرف وإبراهيم التيمي والأعمش: «ملكة»، وهو بمعنى ملكوت إلا أنه خلاف المصحف، ﴿وَالِيهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي تردون وتصيرون بعد مماتكم، وقراءة العامة بالتاء على الخطاب، وقرأ السلمي وزر بن حبيش وأصحاب عبد الله: «يرجعون» بالياء على الخبر (٢).

(١) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص ٩٣، ٩٤) .

(٢) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص ٩٠) .